# 12

## مواطنون بسطاء

بعد نحو عام من لقائي الأول بالدكتور باهر بطي، وهو طبيب نفسي في بغداد، قمت بزيارة لبيته المرتب من بيوت الطبقة الوسطى في الدورة، وهو حي يقع جنوب نهر دجلة وتحيط به المداخن الأربع لمحطة توليد الكهرباء التي أصبحت معقلاً للمتمردين. جلسنا في غرفة المعيشة، وأخبرني د. بطي وزوجه أنهما يفكران في مغادرة العراق، بينما كانت ابنتهما تتابع فيلم كرتون عربياً عن وحش على شاشة التلفاز، حيث قام كثير من الناس الذين يعرفونهم، ولا سيما المسيحيين أمثالهم، بأخذ أولادهم للخارج. كان لبطي شقيق في الإمارات العربية المتحدة يستطيع مساعدتهم في الإقامة هناك. وكان اختطاف المتخصصين قد أصبح وباء متفشياً، لكن المشكلة كانت أساسية ويومية أكثر من ذلك أيضاً. طلب مدير المركز الصحي الأولي الذي كانت تعمل فيه بلسم طبيبة ألا ترتدي فستاناً أحمر ضيقاً للعمل. كما أمر مدير جارتهم، مدرسة الموسيقا الشيعية، أن ترتدي الحجاب. وأُجبر بطي أن يطلب إلى صديق شيعي التدخل في خلاف وقع بعد أن خصم بطي من راتب موظف فاسد في مشفى الرعاية طويلة الأمد. هدد الموظف البطي، وصديق البطي، الذي كان شيخ عشيرة دخل للتفاوض مع شيخ عشيرة الموظف. لم يكن للبطي شيخ عشيرة -لأنه كان مسيحياً- لذا فقد ذهب لطلب الحماية من الشيعة. كانت تلك أشياء لا يعرفها الأجانب إلا فيما ندر، لكنها كانت أموراً من الحياة اليومية للعراقيين أمثال د. بطي وزوجه.

في هذا الجو كان البطي يلجأ لقومه للمساعدة، وهم منظمة للمسيحيين العراقيين تدعى المجلس الكالدو آشوري. لم يكن من قبل يعتنق هويته الدينية، لكن ليس لديه الآن مكان يلجأ إليه. وللحصول على بضع علب من الجعة لسهرتنا معاً، توقفنا عند نادٍ مسيحي خاص كان يعرف فيه أناساً موثوقين؛ لأن معظم متاجر الخمر في بغداد قد أغلقت بعد أعمال تفجير وإطلاق نار. لم تأتِ أفكاره عن مركز جلجامش للتفكير الإبداعي وغيره من المنظمات

المدنيـة بنتيجـة. بعد يوم من العمـل وثلث ساعـة في الازدحام المـروري، كان منهكاً لدرجة أنـه لم يستطـع أن يواصل في فكرة إقامة مجموعـة حراسة محلية للشارع. قـال بطي: «إنه أيضـاً نوع من الأنانية التي نشأت في السنوات العشر الأخيرة من حكم صدام»، كان الجميع يركـزون على نجاتهم، وعلى صراعاتهم الخاصة. وسرعان مـا تفككت الأحزاب السياسية والمجموعـات المدنية الجديدة بسبب خلافات وصراعـات شخصية، أو انهارت بسبب نقص الطاقـة. وقد قال بطـي: إن «التكنوقراطيين» العراقيين كانوا بلا قـوة، أما الأمريكيون فقد نسوهم، حيث كان بأيديهم مشكلات أكبر.

نحـو أواخر عـام 2004، أصبح شبه مستحيـل أن أستمر في العمـل بالطريقة التي كنت أعمـل بها دوماً في العراق. فقد انتهى زمن تناول الوجبات الطويلة في بيوت الأفراد، وكذلك معظـم الزيـارات المنزلية من أي نوع. وانتهى زمن التجـوال في الأحياء، وكذلك السفر دون تخطيط حذر ومحدد الهدف وقصير. وانتهت المحادثات مع الغرباء في الشارع أو المشافي أو الجامعة. كنت أمثل خطراً لهم، كما كانوا يمثلون خطراً لي.

كانـت إستراتيجيـة وسائل الإعلام تجاه التمرد تربكني، فقـد أخفقت على مستوى فهم جمهورهـا، كما هو حال شبكة العـراق الإعلامية لسلطة الائتلاف المؤقتـة. طالما أن الحَكَم النهائـي لحرب العصابـات هو الشعبـان العراقي والأمريكـي، وطالما أن استعـداد الشعب الأمريكـي لاحتمـال المجـزرة في العراق قـد تراجع في أثناء عـام 2004، فمـا سبب إرهاب الصحفيـين الذيـن هم أفضل من يستطيع نقل أحداث المجـزرة إلى بلد المحتل ودفعهم إلى مغادرة العراق؟، كما كان المزيد من الصحافيين يفعلون، وقد سألت مرة رجل أعمال عراقياً، تربطـه صلات بالتمرد، عن ذلك؟ واتفق معي علـى أن سياسة اختطاف الصحافيين وقطع رؤوسهـم هـي سياسة خاطئة. وقال لي: «نحـن نحاول جاهدين أن نجعـل الناس معتدلين، وأن نبعدهـم عـن التطـرف»، وقد بدا رجـلاً مشغولاً جـدًا بشركاء عمل لا يمكـن الاعتماد عليهـم. ربما أراد المتمـردون استمرار عقلية الحصار بـين الصحافيين في بغداد، لمعرفتهم أن الصحافيـين يميلـون لرؤية الصورة العامة بشكل أكثر قتامـة حين يتم تهديد سلامتهم. (انتقـد بـول وولفوفيتز الصحافة بأنها خائفة لدرجة أنها لا تخـرج لإيجاد جميع القصص الإيجابيـة، وإنما تكتفي بالتصريحات حـول العراق التي كان يعتذر عنها دائماً). وربما كان

الكـره المطلق لدى الجهاديين لجميع الكفـار دون تمييز، والإخفاق الأكبر للتمرد في الوصول إلى إستراتيجية سياسية أكثر تماسكاً من الخوف، يفسران التخويف.

كانت النتيجة أن انقطع الأجانب عن العراقيين، وبدا أن النور الذي أشعله سقوط النظام يخفته النهار، مع انسحاب العراقيين إلى الظلال التي أبقاهم فيها صدام عقوداً من الزمن. إذا أردت أن تكـون صادقـاً فعليك أن تقر بأنك تعرف أقل وأقل عن تفكير العراقيين وظروف حياتهـم. كتب روي ستيـوارت، المسؤول البريطاني السابق في سلطـة الائتلاف المؤقتة، الذي يتحـدث اللغة العربيـة: «لا يعرف أي من الأجانب فعلاً ما يحدث في العـراق»، أنا بالتأكيد لا أعـرف ما الذي يجري في العراق. وحتى العراقيين الذيـن يعتمد عليهم الأجانب في شرح ما يجـري في البلاد من السياسيين والمترجمين وأولئك الذين استطاعوا أن يغادروا، ويعودوا قد لا يملكون إلا فكرة بسيطة عن المواطنين الذين يعيشون في المناطق الريفية والأحياء الفقيرة، التي ليس فيها قوات أمن غير المتمردين أو الميليشيات.

لكن الأحداث المهمة كانت تجري هنا بالضبط: في عقول الناس العاديين. كيف يستجيب العراقيون حين تترك الوجوه الأمريكية السلطة لتحل محلها الوجوه العراقية؟ هل سيبدؤون بالنظـر إلى الحكومة على أنهـا تنتمي إليهم وعليها أن تجيبهم؟ هل سيجرؤون على دعمها، أو حتى المشاركة فيها، أو أنهم سيتراجعون لضمان سلامتهم؟

كانـت تلك أسئلة مجردة، لكنها تقود مباشرة إلى أكـثر القصص متعة، القصص التي جعلتنـي أعود إلى العراق باستمرار. برأيي كان المسـوغ الوحيد الباقي للحرب على العراق، هـو إنشاء حكومـة تعطي العراقيين الحياة الأفضل التـي يستحقونها. يجب أن تكون حكومة ديمقراطيـة، لكن ليست مجرد ديمقراطية شكليـة. كانت تتطلب أكثر من مؤامرات القصر والصفقـات الخلفيـة التي كانت تشـكل السياسة العراقيـة في ظل سلطة الائتـلاف المؤقتة والحكومـة الانتقاليـة. كانت تتطلـب مشاركـة الناس العاديـين الذين أصبح مـن الصعب جـدًا معرفتهم. فـإذا بقيت حتى نهاية عـام 2004، أي نية للاستمـرار في تغيير العراق مع الانفجـارات الضخمة والإصابات الفظيعة ومع اكتشـاف المقابر الجماعية يومياً، فلن يكون الفضـل للنخبة السياسيـة الأمريكية أو العراقيـة. وإنما سيكون للعراقيـين العاديين الذين استطاعوا الاحتمال بعد كل ماعانوه سابقاً.

كانت المشكلة طوال الوقت أن أقوى الناس في العراق هم المتطرفون المسلحون والميليشيات. أما أكثر العراقيين انفتاحاً فقد كانوا الأضعف. منذ البداية، تطورت السياسة العراقية بشكل مشوه وخداع، مع أن معظم ذلك ليس غريباً بعد حكم الحزب الواحد. كان في القمة رجال في الستينيات أو السبعينيات من العمر، ومعظمهم يمثلون أحزاب المهجر السابقة الذين كسبوا التأييد من الخطوط العرقية أو الطائفية الضيقة. (توقف أحمد الجلبي الذي لم يكن لديه أي دعم من أي نوع داخل العراق عن الحديث عن الحقوق العامة، واتصل بالكتلة الشيعية، وأصبح بطل مقتدى الصدر، وأعاد ثروته بعد أن تخلت عنه حكومة الولايات المتحدة وداهمت منزله في بغداد. حتى أقسى منتقدي الجلبي كان عليهم أن يحترموا انتهازيته الفطنة). كان هؤلاء هم السياسيين الذين تعامل معهم الأمريكيون -بصفة وسطاء بينهم وبين الميليشيات المسلحة- مهما كان الحديث عن الديمقراطية الليبرالية في البنتاغون والبيت الأبيض ومجالس الخبراء وفي كتابات كنعان مكية. سخر بريمر ومساعدته ميغان أو. سوليفان وقتهما وطاقتهما في تشجيع قادة الأحزاب الشيعية الدينية كحزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذين كان لديهم آلاف الرجال المسلحين. زار المسؤولون الأمريكيون بيوت هؤلاء القادة وأولوهم اهتماماً خاصاً في مجلس الحكم، على أساس أن سلطة الائتلاف المؤقتة إذا استطاعت إبقاءهم تحت جناحها، فيمكنها إحداث أثر في النتيجة النهائية.

لكن بدلاً من ذلك، في الشوارع، حيث كانت سيطرة الأمريكيين ومعرفتهم قليلة، تبارت ميليشيات الأحزاب الدينية على السلطة مع أتباع مقتدى الصدر. وتم الاستيلاء على المساجد والمشافي والمدارس من قبل رجال مسلحين يهتفون بشعارات مشؤومة، وتم تهديد النساء لمجرد أن مظهرهن غير إسلامي أو حتى لخروجهن من البيوت. داخل المنطقة الخضراء، دارت مفاوضات طويلة حول دور الإسلام وحقوق النساء في الدولة الجديدة، أما خارج المنطقة الخضراء، فقد كان هناك رمز اجتماعي قاسٍ يتم فرضه من قبل الميليشيات. ثم كان هناك التمرد السني الذي حرص على ألا يجرؤ على الظهور في الاجتماعات العامة إلا أكثر المواطنين شجاعة وإخلاصاً.

في هذه الظروف، كان من المستحيل نمو شيء يشبه الحياة المدنية الطبيعية. كان العراقيون الذين يأمل بهم المرء يخرجون للسطح، أما أولئك الذين لديهم أفكار ديمقراطية

أكثر لكن ليس لديهم مؤيدون أقوياء فقد كانوا يبتعدون، بانتظار أن يروا كيفية سير الأمور. مرة قال لي طبيب عجوز متصلب، كان مستقلاً كردياً في مجلس الحكم: «الميليشيات ورجال الدين الشيعة وأثرياء الحرب هم الذين يحكمون العراق الآن. أما المواطن البسيط فلا يسمح له أن يحصل على حقوقه، أو يتكلم بحرية عما يريد». وكان يلقي جزءاً من اللوم على الأمريكيين. «إنهم لا يهتمون كثيراً بالمواطن العراقي البسيط. بل يهتمون بزعيم العشيرة هنا والملا هناك، ورجل الدين هنا، ورجل الميليشيا هنا، وزعيم الحزب هناك».

كان من الممكن إيجاد عراقيين يتقدمون للمطالبة بمستقبل بلادهم السياسي. كان عددهم قليلاً، ولا يقارنون من حيث المال والسلطة بالأحزاب والميليشيات، وكانوا في اعتقادي أقوى الناس على وجه الأرض. وفي بعض الأحيان كان هناك أمريكيون مستعدون لدعمهم.

كان المعهد الديمقراطي الوطني منظمة تحصل على تمويل كبير من قبل الحكومة الأمريكية ومنضمة للحزب الديمقراطي، كانت تعمل باستقلال نسبي، تحت إشراف المؤسسة الوطنية للديمقراطية. وكان هدف المعهد إيجاد «المواطنين البسطاء» في مكان كالعراق ومساعدتهم للمشاركة في الحياة السياسية الديمقراطية. وكان هذا عملاً غامضاً لا يحصل على تمويل كافٍ، لكن إدارة بوش كانت تحاول أن تُغدق نصف مليار دولار على العراق لبرامج «بناء الديمقراطية» قبل الانتخابات الوطنية. وقد جعل تصعيد العنف إنفاق المال أمراً صعباً.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، ذهبت إلى الحلة التي تقع على بعد تسعين ميلاً جنوب بغداد، مع مجموعة من العراقيين والأمريكيين الذين يعملون في المعهد الديمقراطي الوطني. وقد ذهبنا بعربات غير مصفحة، ودون حراس. في المقعد الخلفي لإحدى السيارات كان يجلس ديفيد ديتمان المستشار السياسي من أوهايو، وكان يرتدي بذلة بحرية زرقاء، وربطة عنق بلون السلامون ونظارات، وكان شاحباً ويدخن بشكل متواصل. كان ديتمان الذي كان في الثالثة والثلاثين ولديه حس دعابة متوتر ناقد للذات يذكر بشخصية جاك ليمون، قد عمل سنوات عدة بنجاح بصفة مستشار حملة. ثم فر ناجياً بنفسه من المجلس التشريعي للولاية على أنه ديمقراطي، وتعرض للاتهام، ثم أدرك الحقيقة. وقد قال: «إن سبب اتهامي هو أنني آمنت بالعملية فعلاً». فقرر أن يترك عالم الموظفين ذوي الدم البارد،

وأصبح أحد المبشرين بديمقراطية المعهد الوطني للديمقراطية، وحصل على وظيفة في أوكرانيا (حيث أثمر عمله في نهاية عام 2004، بالثورة البرتقالية التي أطاحت بالحكومة الأوكرانية الفاسدة). ومما أفزع زوجه ووالدته ورئيسه أنه جاء إلى العراق أسبوعين لتدريب المجموعات على تحفيز الناشطين في الأحزاب السياسية في بغداد وتكريت والحلة.

جرت ورشة العمل في الحلة في المقر السابق للشرطة السرية الذي أصبح مركزاً لحقوق الإنسان. كان أربعون عراقياً -بينهم أستاذ علوم سياسية ومدرب رياضي عاطل عن العمل- قد جاؤوا وعرضوا أنفسهم للخطر لحضور التدريب. كانوا ينصتون باهتمام شديد ويسجلون الملاحظات بعناية، بينما كان ديتمان يقف حانياً كتفيه، أمام أوراق الرسم البياني ويقدم برنامجه المكون من عشر خطوات حول تطوير الرسالة والاتصال بالناخبين. وكانت ميساء النعيمي، وهي من الموظفين الأعضاء في المعهد الوطني للديمقراطية، تترجم بشجاعة المصطلحات الغريبة للحملة: «وسائل الإعلام المكسوبة»، «إستراتيجية الاتصالات»، «قضايا الأساس والدعائم». وقد سبق أن قال لي ديتمان: «السياسة هي فن جعل الناس ينتخبونك. وهذا قابل للتطبيق في جميع أنحاء العالم. ولو لم يكن كذلك، لما كان لي عمل».

بعد ساعتين من النقاش، رفع عراقي يده وقال: «هذا يريني أننا نقوم بتحول من الديكتاتورية إلى الديمقراطية. ويعطيني شعوراً جيداً. لكن السؤال هو الآتي: هل ستترك الحكومة الأمريكية الأمر لنا؟ أم أنها سترمي إلينا بشخص ما؟ هل ستضيع هذه الجهود كلها؟».

في الخارج، سمعنا صوت انفجار -نيران أسلحة هاون- ثم انفجار ثانٍ أقرب، وبعد ذلك إطلاق نار. نظر ديتمان من النافذة، وابتسم ابتسامة إنذار عريضة.

فسأل أحد الحاضرين: «هل يجيب ذلك عن السؤال؟».

قال ديتمان: «أنا لست من الحكومة. أنا من المعهد الوطني للديمقراطية. علينا أن نذهب لتناول الغداء. هل يمكن أن نتحدث عن هذا فيما بعد؟».

وبعد الغداء عاد ديتمان إلى السؤال، فقال: «برأيي أنه إذا كانت أمريكة قد قامت بغزو العراق فقط لتضع ديكتاتوراً صديقاً لها، فستكون أرواح العراقيين والأمريكيين التي فقدت

جميعها قد ضاعت سدى. لقد أيدت الغزو؛ لأنني أعمل في مجال الديمقراطية. أنا لا أعرف شيئاً عن أسلحة الدمار الشامل -ولا أعرف إن كان أحد يقول الصدق أم لا- لكنني أعرف بالفعل أن الشعب العراقي يستحق الحرية. لا أستطيع أن أقول: إن الأمريكيين لن يفعلوا شيئاً خطأ؛ لأنهم قد فعلوا كثيراً من الأخطاء في هذا الاحتلال. وأنا آسف لذلك، لكن هناك سبب لوجود المعهد الوطني للديمقراطية هنا، وهناك سبب لأننا لم نحضر دبابة. نحن أقل الأمريكيين تسليحاً في الحلة. نحن هنا لثقتنا في كرمكم. لأن الديمقراطية شيء جيد وصحيح». وتابع قائلاً: «وإذا كان هناك سبب آخر لخوض هذه الحرب المؤلمة، فسأغضب جدًا. المشكلة أنني لا أستطيع فعل الكثير. أنا مجرد أمريكي متغطرس يرتدي بذلة، ويقف أمامكم. وأنا لم أعانِ بقدر ما عانيتم. أنتم وحدكم تستطيعون بناء الديمقراطية هنا. لكن لو فكرت مجرد تفكير في أن أمريكة ستسرق الحرية التي نحارب لأجلها، لكنت بقيت في بلادي مع زوجي وقضيت وقتاً طيباً».

سأله أحدهم: «ألا تقضي وقتاً طيباً هنا؟».

«بلى، أنا أمضي وقتاً طيباً. لكنني أفتقد زوجي».

كان خطاباً من القلب، واستقبل بالتصفيق. ثم تمتم رجل يجلس بجانبي قائلاً: «وضع شخص بريطاني اسمه هامفر خططاً قبل عقود للرؤساء الذين سيتعاقبون على حكم العراق».

كان الناس في القاعة ينتمون إلى ما سماه د. شاكر، الطبيب الشرعي في مشرحة بغداد، «مستوى التفكير المتوسط». لم يكونوا من رجال الدين، ولا من رجال الميليشيات، وكانت بعض الأحزاب التي ينتمون إليها لا تضم أكثر من سبع مئة عضو. لم يكونوا يشبهون الليبراليين الغربيين؛ كانوا يريدون في حكومتهم ديناً أكثر مما قد يفضله أعضاء مجلس المعهد الوطني الديمقراطي. لم يكن هناك إلا ثلاث نساء في الحضور. وكان ذكر هامفر الجاسوس البريطاني المفترض الذي يلقى عليه اللوم لكثير من المشكلات في العالم الإسلامي، يظهر أن هؤلاء العراقيين كانوا عرضة للشعور بانعدام القوة ونظريات المؤامرة التي يبرزها كمعظم الآخرين. لكن الأهم هو أنهم قرروا بالفعل أن يكون لهم دور في الحياة السياسية.

كان من بين المشاركين جودت العبيدي، ضابط الجيش السابق من الحلة. كان قد هرب من العراق بعد اشتراكه في التمرد الشيعي عام 1991 وانتهى به المطاف في بورتلاند بأوريغون. فأنشأ شركة ليموزين صغيرة هناك، وفي عام 2003، باعها وعاد إلى العراق عضواً في ميليشيا جمعتها قوة الغزو الأمريكي. وفي العراق، أنفق العبيدي 150.000 دولار من مدخراته لإقامة ائتلاف من نحو مئتي حزب سياسي صغير لمنافسة الأحزاب الكبيرة في الانتخابات الوطنية. جمع برنامج الائتلاف بين برنامج عمل إسلامي معتدل وبين الوطنية العراقية واحترام الحقوق الفردية، وهو مزيج معتدل بشكل مقصود بدا مصمماً ليحصل على دعم واسع.

كان في الاجتماع أيضاً زوجان من قرية المحاويل، ذات الشوارع القذرة والمستنقعات المالحة التي تقع على بعد بضعة أميال شمال الحلة: عماد داود الذي كان يعمل في محل يبيع مواد البناء، وزوجته سعاد التي حصلت على شهادة في إدارة الأعمال في بغداد، لكنها لم تستطع إيجاد عمل، وهي الآن تقوم بتربية أولادها الثلاثة. شأنها شأن بقية النساء في الاجتماع، وكانت تغطي رأسها.

شرح زوجها الأمر لي قائلاً: «نحن نذهب إلى كل مكان معاً».

فقالت سعاد: «أي زوجين مثقفين يفعلان ذلك».

وأضاف عماد: «طبعاً لدينا دين، ونحن نسير وفق القواعد. لا يقول دين الإسلام: إن المرأة لا يمكنها الاختلاط بالرجال، لكن لكل شيء حدود».

أشارت سعاد إلى أن الإسلام لا يحرم النساء من المشاركة في السياسة: «ينبغي أن يكون للنساء دور في كل شيء».

كان قمع الانتفاضة الشيعية عام 1991 وحشياً، وبصورة خاصة في الحلة. وفي عام 2003 اكتُشِفت مقابر جماعية تضم آلاف الضحايا في محيط المدينة. وقد فقد كل من سعاد وعماد شقيقاً وعدداً من الأصدقاء. لم يكونا يعرفان إلا القليل عن مضمون الدستور الانتقالي للعراق، لكنهما كانا يعرفان جيداً معنى العيش في ظل حكم صدام. قال عماد: «كان الأمر أشبه بمطرقة تنزل على رؤوسنا كل يوم، ثم قاموا بتخليصنا منها».

كانت عائلة داود تنظر في وقت من الأوقات إلى الأمريكيين بوصفهم أبطالاً محررين، لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً. فحسب قول عماد، بينما كان الاحتلال يستقر، ومع الانقطاع المستمر للتيار الكهربائي وانتشار الجرائم، كان الشعور بالتعاسة يتحول إلى نوع من الجنون. وأضافت سعاد: «الأمور تسير نحو الأسوأ هنا. طبعاً لو كانت هنالك ديمقراطية لاختلفت الأمور».

قال عماد: «لكن الديمقراطية تحتاج إلى وقت طويل، لأننا نعيش منذ زمن طويل تحت حكم صدام».

قالت سعاد: «معظم الناس لا يفهمون فكرة الديمقراطية. إذا سألت أي شخص عن الديمقراطية، فستجد معظم الناس يقولون: وماذا سأفعل بالديمقراطية؟ أعطني الأمن أولاً».

قال عماد: «أعرف شخصاً أطلق رصاصتين عشوائياً، وقال: أليست هذه حرية؟» أما فيما يخص محاضرة ديتمان، فمن الواضح أن هذين الزوجين كانا يعتقدان أن حضور الأمريكيين للقائهم في الحلة يعني شيئاً. فقد شعرا أن ديتمان قدم لهما الكثير من المعلومات المفيدة. كانت شكايتهما الوحيدة هي عدم وجود امتحان في النهاية، لاختبار كم تعلما عن الديمقراطية.

كانت فرص حصول الأشخاص الذين حضروا الاجتماع في الحلة على أي نجاح فوري في المرحلة السياسية ضعيفة. وقد قالت مارينا أوتوويه، الخبيرة في منحة معهد كارنيجي للسلام الدولي في واشنطن: إنه بعد سقوط الديكتاتوريات: «تجد دائماً كثيراً من الأحزاب السياسية التي تتشكل، ولا تصل إلى شيء، ولهذا السبب -تضيف أوتوويه- كان المعهد الوطني للديمقراطية «يقوم بشجاعة بشيء لا جدوى منه أبداً». لكن النجاح في الانتخابات لم يكن المقياس الوحيد لتأثير المعهد. فقد شعرت في الحلة أن مجرد إقامة نقاش عن الديمقراطية، وسط إطلاق النار، يتم فيه الأخذ والعطاء بين العراقيين والأجانب، هو إنجاز بذاته. وقد قال ليس كامبل، مدير المعهد الوطني للديمقراطية في الشرق الأوسط: «حتى بوجود جميع المشكلات في العراق، هناك مساحة في المجتمع المدني، وتنظيم للأحزاب أكثر من أي دولة عربية ذات نظام وسيادة». ووصف كيف كان الموظفون الأعضاء في المعهد الوطني العراقي، مثل ميساء النعيمي قد بدؤوا بالازدهار الفكري. «حتى وسط القتل الرهيب، ومع

أن التخطيط والإدارة لا يزالان مجرد نكتة، فهناك شيء مهم يجري هنا. وأنا أشعر بالمرض إذا فكرت أنه قد لا ينجح».

عدت إلى العراق مرة أخرى في يناير/ كانون الثاني 2005. كانت الانتخابات التي طالب بها آية الله السيستاني منذ سقوط النظام ستُجرى أخيراً. حيث أصبحت إدارة بوش من أقوى المدافعين عنها، بعد أن قاومتها نحو سنة ونصف السنة وتم تحديد تاريخ 30 يناير/ كانون الثاني 2005 موعداً نهائياً لإجرائها.

كانت هناك أسباب وجيهة لتأجيل الانتخابات، فقد كانت أكثر الجماعات تسليحاً وتنظيماً، التي تحصل على التمويل من إيران وسورية والسعودية متفوقة بكل معنى الكلمة على المجموعات الأقل طائفية أو تشدداً، كتلك التي رأيتها في الحلة، وهناك أمثلة في التاريخ الحديث -منها البوسنة- حيث أبقت الانتخابات المندفعة لما بعد الحرب ببساطة أقل القوى ديمقراطيةً في السلطة سنوات قادمة. كان خبراء الأمم المتحدة حذرين من الانتخابات المبكرة شأنهم شأن المسؤولين الأمريكيين. لكن كما في كل الخطط الأخرى المتعلقة بالعراق، خرجت الأمور عن السيطرة وغطت على الأفكار البراقة للناس في واشنطن وبغداد. وبدأ المسؤولون السابقون في سلطة الائتلاف المؤقتة يقولون في جلساتهم الخاصة: إن الخطأ الكبير كان الإخفاق في إجراء انتخابات محلية في بداية الاحتلال. فلو استطاع العراقيون انتخاب مجالسهم المحلية بعد سقوط النظام مباشرةً، ثم انتخاب مجالس المحافظات، وأخيراً حكومة وطنية، لأصبحوا مشاركين في السياسة العراقية بطريقة لم تحدث من قبل، وربما كان الاحتلال قد سار بشكل مختلف تماماً. لكن الوقت كان متأخراً جدًا لوضع تصورات بديلة.

بدلاً من ذلك، كانت الانتخابات الديمقراطية الأولى في البلاد ستُجرى بعد نحو سنتين من الغزو، في ظروف أقل من مثالية. وحتى بعد أن خلص هجوم القوات البحرية في نوفمبر/ تشرين الثاني 2004 الفلوجة من سيطرة الجهاديين، بدا أن المتمردين قد اكتسبوا مزيداً من القوة، حيث وسعوا من حجم عملياتهم من محافظة الأنبار إلى الموصل، وسيطروا على مناطق كبيرة من بغداد. كان في واشنطن معرفة تقليدية جديدة: وهي أن حرب العصابات مشتعلة في العراق كاملاً، كما أن أمريكة تخسرها (نقل عن كولن باول أنه قال ذلك لأصدقائه).

كان على العراقيين الانتخاب تحت التهديدات المباشرة. سجل الإرهابي الأردني أبو مصعب الزرقاوي تصريحاً، تم نشره على شبكة الإنترنت، أعلن فيه الحرب على الانتخابات العراقية، ووصف فيه الديمقراطية بأنها شكل شرير من أشكال الشرك الذي يستبدل بالله سياسيين، وأنها مؤامرة «صليبية» و«رافضية» شيعية. انتشرت أوراق مجهولة في العاصمة العراقية تهدد بـ «غسل شوارع بغداد بدماء الناخبين. إلى من يظن أن بإمكانه أن ينتخب ويهرب، سنتبعكم كظلكم ونمسك بكم، وسنقطع رؤوسكم ورؤوس أطفالكم». في معظم أنحاء العراق، كانت العناصر الرئيسة للحملة الانتخابية -كالاجتماعات العامة، والتثقيف الانتخابي، والاستعراضات، وجمع الأصوات من البيوت- شبه مستحيلة. أبقت القوائم البرلمانية أسماء معظم المرشحين سرية لحماية أرواحهم، وكان الناخبون لا يكادون يعرفون من يختارون لتمثيلهم. أعلن فريق من المراقبين الدوليين أنهم سيقومون بمراقبة الانتخابات العراقية من عمان، التي تبعد مئات الأميال في بلد آخر. عرفت الإدارة مشروعها للديمقراطية في الشرق الأوسط بانحدار شديد لدرجة أنه بدا أن الانتخابات ستكون ممارسة دموية.

كانت عمان نقطة الدخول والخروج في رحلاتي إلى بغداد. وكانت لحسن الحظ مدينة مملة تعمل فيها إشارات المرور، وليس فيها نقاط تفتيش. في فندق الفور سيزنز، كانت موسيقا المصعد وأغطية السرير المقلوبة والإفطار المفتوح رفاهية كما في الأحلام. كان موظفو الاستقبال مدربين أن يقولوا: «أهلاً بعودتك، سيد باكر»، وكنت أشعر براحة دائماً حين يرحب بي شخصياً في مكان لا أحتاج فيه إلى حارسي. كانت مدينة عمان الوديعة، بجوها الجبلي الجميل ونسائها العربيات اللواتي تضعن صبغة شقراء، تبدو للعراق في مدة مثل بانكوك. في قاعة الاستقبال الفاخرة لفندق الفور سيزنز تجد دوماً الصحافيين في طريقهم لدخول العراق أو الخروج منها، وموظفي الإغاثة الذين يقضون أوقاتهم في أثناء متابعتهم أعمال العنف، ومسؤولي الحكومة العراقية الذين يعقدون الاجتماعات التي يمكن أن تكون خطرة جدًا في بغداد، والمغتربين العراقيين الذين يغطسون في الكنبات، ويحتسون القهوة التركية، وينظرون حولهم بنظرات تآمرية غامضة.

مع حلول عام 2005 كان في الأردن ما لا يقل عن ثلاث مئة ألف عراقي، وكانت أسعار الإقامة في عمان قد ارتفعت بشكل كبير. كان بعضهم من الفارين من العنف، بعد تجربة

قاسيــة عــادة كالسرقة أو الاختطاف في الماضي القريب. وكان آخــرون يأتون للحصول على متنفس، وكأن الأردن منتجــع يستطيع العراقيون الأثرياء الذهاب إليه؛ ليريحوا أعصابهم. كمــا كان هناك آخــرون من السنة غير الراضين عن النظام الجديد للأمور في العراق الذي يتــم فيــه الموازنة بين الشيعة والأكــراد في السيطرة على البلاد. كان لبعض هؤلاء السنيين ارتباطات بالتمرد؛ وكان بعضهم من قادته.

مكثــت في عمــان بضعــة أيام هذه المــرة قبل الذهــاب إلى بغــداد. أردت أن أتحدث إلى السنيــين، الأمــر الذي أصبح صعباً وخطراً داخل العــراق. كان معظم قادتهم -الذين كانوا تشكيلــة مــن سياسيي الأحــزاب والأئمــة المحافظين- مقاطعــين للانتخابــات. وكان بعض المرشحــين قــد انسحبوا تحت التهديــد، كما أجرى بعضهــم حسابات سياسيــة فوجدوا أن المقاطعة والعنف سيخفضان عدد الأصوات إلى مستويات مهينة. أما المتشددون فقد رفضوا فكرة إجراء انتخابات تحت الاحتلال كلياً. لكن خسارة الجماعة السنية للسلطة كانت دوماً جــزءاً من الأسباب المحركــة للتمرد، ومع اقتراب موعد الانتخابــات كانت صفتها الطائفية تــزداد وضوحاً. كان الجنوب الشيعــي والشمال الكردي متحمسين للتصويت. أما في الوسط السني، إذا أراد الناس أن يذهبوا إلى صناديق الاقتراع، فقد كانوا يخفون خططهم الخاصة بيوم الانتخابات. لم تتوافــر بعد لدى السنة، القيادة السياسية الحقيقية القادرة على إقناع الجماعــات المسلحــة والناس غــير المنخرطين في العمل المسلــح بأن اللعبــة السياسية كانت أملهم الوحيد. تناولت العشاء مع غسان سلامة، المستشار السياسي السابق لسيرجيو فييرا ديميللــو، في إحــدى الأمسيات في عمان. وحــين ذكرت الحالة السياسية غــير المتطورة عند السنــة في العراق مقارنة بمثيلتهــا عند كل من الأكراد والشيعة، أجاب سلامة طالباً مني أن أسمي قائد الطرف السني في الحرب الأهلية اللبنانية، وقال لي: «لن تستطيع؛ لأن السنة لا يرون أنفسهــم طرفاً بين الأطراف المتنازعة. إنهم يرون أنفسهم قوة. ويعدون أنفسهم ورثة الإمبراطورية العثمانية، وهذا لن يتغير».

قابلــت مجموعة من السنة من محافظة الأنبار كانــوا على علاقة بشكل ما بالتمرد، عن طريق موظف في السفارة كان بعثياً سابقاً مقرباً من عدي. كان اثنان منهم شيوخ عشائر من الرمادي، أما الثالث فكان رجل أعمال شاباً، كانت هناك أقاويل بأنه كان أحد التجار الذين

استفـادوا من صدام. كان لقاؤنـا في مكتبه في شركته في شارع هادئ من شوارع عمان. كان رجل الأعمال، طلال الكَعود، حاصلاً على شهادة ماجستير في إدارة أعمال البناء من جامعة USG، يرتدي الجينز وحمالات للبنطال، وكان على اطلاع على أحدث المقالات في الصحافة الأمريكيـة. ذكروا جميعـاً أنهم حريصون على بناء عراق ديمقراطـي. لم يكن لديهم شيء ضـد الأمريكان؛ لقـد حلموا طويلاً بالأشياء الجيدة التي يمكـن لأمريكة أن تجلبها للعراق، ورحبوا بسقوط النظام، قال الكَعود: «أنا مؤمن بالنوايا الطيبة لدى الأمريكيين، ولكن شيئاً مـا قـد حدث في الطريق من واشنطن إلى بغداد». حرب العصابات هذه كلها سوء حظ، ولم تكـن لتحدث لو أنصت الأمريكيـون لأناس مثلهم بدل غزو بيوتهـم والعبث بكرامة نسائهم وإرغام العراقيين على طلب الثأر.

أقـر الكعـود بأن بعضـ المتمردين يعيشون في القـرون الوسطى، وهـم المتطرفون الذين أساؤوا إلى سمعة الباقين. لكن المقاومة الشرعية، كما كانوا يسمونها، كانت مقاومة عراقية ضـد الاحتلال. وكانـت تضم مئتي ألف شخصـ، وإذا استمرت الانتخابـات فإن أعدادهم ستتضاعـف عشرة أضعاف، حسـب قول الكعود. وستصبح الحـرب الأهلية حرباً فعلية. لم يكن هؤلاء هم السفاحين المقنعين الذين تخيلتهم. كانوا عراقيين يسهل تمييزهم، من شيوخ العشائر التقليديين، ورجال الأعمال الحديثين، وكان لهم صلات بعالمي أكثر مما تصورت.

ثـم بـدأ ما تحت السطح بالظهور، فقـد ادعى الشيخ زيدان خلف العـواد، أن السنة هم الأكثريـة في العـراق (63 بالمئة). وقال الشيخ: «لو استقر السنـة في أمريكة لحكموا أمريكة. نحـن نمسك العصا من الوسط دوماً. نحـن نستطيع تحريكها بأي شكل فنحن نتحكم بها». أما السياسيون الذين يسرعون للحصول على المنصب في العراق، من الأكراد والشيعة، فقد كانـوا بيادق غير شرعية بيد الأمريكيين أو الإيرانيين، وإذا تعرضوا للاغتيال فسيكون ذلك سيئاً جدًا لهم.

وزع الكعود نسخاً من بيانات المقاطعة الصادرة عن العشائر السنية الرئيسة.

سألته: «ماذا لو أراد بعض الناس من العشائر الانتخاب؟».

– «لا يستطيعون فعل ذلك».

- «ماذا سيحصل لهم؟».

- «إذا ذهب أحد للانتخاب فسيقتل».

نظر ضابط الهجرة في مطار عمان إلى جواز سفري، ونظر إلي، وأشار إلى صدغه قائلاً: «العراق، العراق. رأس، لا رأس». كان لذلك عدة تفسيرات لكن أياً منها لم يكن مطمئناً. ومع ذلك فقد كانت الطائرة المغادرة إلى بغداد بطاقمها الجنوب إفريقي ممتلئة، لقد كان هنالك دائماً أناس مستعدون للذهاب إلى العراق في الغالب سعياً وراء المال. لاحظت في المقاعد حولي مجموعة من متعاقدي البناء الشقر يتحدثون بلهجة جنوبية، ويرتدون قبعات البيسبول، ومجموعة أخرى من حراس الأمن الأقوياء صغار السن مع أجهزة iPod، وفي الخلف كان هناك عراقيون وأشخاص من جنوب شرق آسية. في الصف الأول جلس هوشيار زيباري، وزير خارجية العراق الكردي، كانت الصحفية الجالسة بجانبي تمضغ قطعة من العلكة وكأنها كانت مصممة على تدميرها. لم يتكلم أحد، قال ربان الطائرة بمرح ولكن: «سنتبع طريقاً ملتوياً إلى أن نصل إلى بغداد، وعندما نصبح فوقها سنهبط».

كانت بغداد في حالة من الفزغ. كان في الطريق حواجز أكثر من أي وقت مضى، وكان عدد أكبر من طائرات الأباتشي يحلق فوق المدينة على ارتفاع منخفض. وكانت عربات الهامفي الأخيرة من القوافل الأمريكية تعرض إشارات باللغتين العربية والإنكليزية تقول: «ابقوا على بعد 100 متر وإلا سنطلق النار». وكانت صورة حملة رئيس الوزراء علاوي والتحالف الذي شكله آية الله السيستاني تغطي الجدران وتتدلى من أنوار الشوارع، لكن حديث الانتخابات كان يدور كله حول التدابير الأمنية وحمامات الدم. قضيت ليلتين في فندق الرشيد، مما يعني أنني نمت أول مرة داخل المنطقة الخضراء، وكوني محجوباً عن العراق لم يزد إلا شعوري بالقلق. كان فندق الرشيد تحت إمرة الملازم إي. أي. ستروسكي، من الجيش الاحتياطي ومرفق بوفالو للكهرباء. كان ستروسكي رجلاً عصبياً ضعيف البنية له شاربان كبيران، وكان يسأل كل زائر جديد: «هل تريد غرفة في جانب الرصاص أو في جانب الهاون؟» وكانت قواعد الفندق تنص على عدم إدخال أجهزة اتصالات إلى الغرف، وعدم استقبال الزوار، وعدم الحديث مع العسكريين، والابتعاد عن الطوابق الأخرى والبقاء خارج المطعم. وقال ستروسكي: «أنتم هنا للأكل والنوم في مكان آمن. إذا حدث هجوم

بالصواريخ أو قذائف الهاون فادخلوا إلى الحمام. وسيأتي غورخا؛ ليشرح لكم ما يحدث. لأسباب أمنية، طُلب إلي أن أوقع باسم «ستروسكي 494#». قال ستروسكي: «انسوا المنطق هنا»، بدا أن الحرب قد دخلت مرحلة فيلم M*A*S*H: ففي زيارتي اللاحقة، أتوقع أن أرى الملازم ستروسكي يرتدي ثوباً.

كانت وجهتي مدينة البصرة، المدينة الشيعية الثانية في العراق، التي تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للبلاد. كنت أريد أن أرى الانتخابات في مكان يمكن فيه التجوال ببعض الحرية، ويكون للناس فيه شأن بالسياسة أكثر من القتل. سافرت إلى البصرة بطائرة نقل عسكرية بريطانية. فقد كانت البصرة في القطاع البريطاني. وكان ذلك يهمني أيضاً.

كان شكل الأنوار يدل على أن الخليج العربي لا يبعد أكثر من ساعة. كان مستوى الماء في منطقة الأهوار عالياً لدرجة أن البصرة كانت تعتمد على نظام الأقنية للري. لكن القنوات كانت مسدودة، وفي أحد أيام الشتاء غمرت الأمطار الغزيرة أحياء كاملة بعدة أقدام من الماء والصرف الصحي، وبعد أسبوع انحسر الفيضان، فصارت الشوارع مغطاة بالوحل، وجعلت المدينة صورة للإهمال. كان الفقر في البصرة المحاطة بمعظم خزانات النفط العراقية بالإضافة إلى مزارع منتجات التصدير، على مستوى إفريقية أو آسية. كانت البيوت الطينية المنتشرة بشكل غير قانوني تتزاحم للحصول على مساحة وسط أكوام القمامة للشقق الشيعية، كانت تؤوي عائلات طردت من الأهوار التي جففها صدام بعد عام 1991. كان مركز المدينة يغص بالمتاجر المتهاوية وأنقاض المباني الإسمنتية الحكومية التي قصفتها الضربات الجوية الأمريكية في أثناء الغزو. قرب مسجد أشار، كانت مجموعة إسلامية قد سيطرت على حديقة فيها ناعورة ودناصور غيرت الشمس لونه. كانت المباني المنهوبة تطل على ضفاف شط العرب الذي تصب فيه مياه دجلة والفرات إلى الخليج العربي. وباتجاه الخليج، كان القصر الذي تغطيه القباب والذي بناه صدام ويقال: إنه لم يزره إلا مرة واحدة. وتحتله الآن السفارتان الأمريكية والبريطانية.

في مساء معتدل منعش، زرت الكورنيش، وهو حي قديم على طول شط العرب، وكان خلفي صف من الجدران الإسمنتية التي أصابها القصف. كانت أسراب من طائر البلشون الأبيض تطير فوق سفن صيد المهربين الصدئة التي تطفو بجانب حطام مركب للطيران البحري

العراقـي. كان القمر يرتفع فوق أشجار النخيل على الضفة الأخرى، وقد اختفت إيران على بعـد أميـال قليلة خلفها، وكان من الممكن أن أتخيل المدينة التـي خلفي بصفتها مركزاً غنياً للتجـارة العالمية، كمـا كانت سابقاً. ربما كان تاريخ البصرة الحديـث أكثر مأساويةً من أي مدينة أخرى، غير أن هذا التاريخ نفسه قد جعل البصرة مؤهلة لتكون أرض تجارب لمستقبل القوى السياسية في العراق.

في عـام 1982، في السنـة الثانيـة مـن أطـول الحـروب التقليديـة التي شهدهـا القرن العشرون، تسلل ضابطان صغيرا السن من الجيش العراقي، يوسف الإمارة ومجيد الساري، وهمـا من البصرة، كل على حدة، عبر الحـدود وهربا إلى إيران، البلد المعادي للعراق. كان إمـارة رائداً في الثالثة والثلاثين من العمر، وساري ملازماً في العشرين من عمره. كانا مثل أغلبيـة سكان جنوب العراق من الشيعة، لكـن فيما عدا ذلك كانا مختلفين جدًا عنهم. كان إمـارة ممتلـئ الجسم ملتحياً ذا رأس دائرية، مع طبع حـذر يميز الرجل الذي انخرط مدة طويلـة في العمل السياسي السري، وهـو مسلم ملتزم وتوجد لديه علامة من أثر الصلاة في منتصف جبينه. كان هدفه من اللجوء هو القتال لنشر الثورة الإسلامية الإيرانية في بلاده. أمـا سـاري، فقد كان غـير ملتحٍ، متأنقاً في ملبسـه يضحك ويبكي بسهولـة، وهو مثل بعض الشباب في مقتبل العمر كان يحب أن يشرب الخمر ويلاحق النساء. كانت البصرة في ذلك الوقـت ميناءً عالمياً وتحوي محال بيع البهـارات مملوكة لتجار من جنوب آسية ونوادي ليلية يعمل فيها عمـال مصريون وزبائنها كويتيون؛ كانت مكاناً مناسباً له، حتى اندلعت الحرب. غادر ساري العراق؛ هرباً من وحشية نظام صدام ومن الحرب العبثية التي نشبت.

التقـى إمارة وساري أول مرة في بلدة إيرانيـة شرق طهران، حيث قررا مع مجموعة من المنشقـين العراقيين الآخريـن تشكيل مجموعة معارضة، ولكنهمـا لم يستطيعا الاتفاق على تسميتها مجموعة الضباط الأحرار، أو كما أراد إمارة، حركة الضباط الإسلاميين الأحرار. وفي النهايـة فـاز جناح إمارة، وتمـت تنحية ساري من المنظمة التـي أصبحت تحت سيطرة الحرسـ الثوري الإيراني وتمت تسميتها فيلق بـدر؛ تيمناً بالمعركة الحاسمة التي جرت عام 624 للميـلاد، حين استطـاع الرسول محمد ﷺ وأتباعه هزيمة كفـار مكة، على الرغم من

التفوق العددي لأعدائهم.

أصبح إمارة قائد المدفعية في جيش بدر. توسعت الميليشيا مع انضمام سجناء الحرب: فقد ضغطت إيران التي أسرت في النهاية نحو سبعين ألف عراقي على الشيعة الذين أسرتهم للانضمام إلى إخوانهم الفرس ضد الطاغية المرتد الذي كان يقتل قادتهم الدينيين في مدينتي النجف وكربلاء المقدستين. كان قلة من العراقيين الشيعة راغبين في تقديم عقيدتهم الطائفية أو مصالحهم الشخصية على ولائهم الوطني، على الرغم من أن أولئك الذين رفضوا واجهوا سنوات طويلة من السجن. قاد إمارة أولئك الذين غيروا ولاءهم إلى المعركة، في الأهوار شمال البصرة. عرف لواء بدر بالشراسة، ولم يشعر إمارة بالندم لقتل العراقيين.

وجد ساري بسرعة أنه لا يحب إيران الثورية أكثر من العراق الفاشي، وانتقل إلى باكستان. وفي عام 1985 اعتقلته المخابرات الباكستانية وسلمته للعراق. أمضى ساري سنتين في سجن «أبو غريب» وسجون أخرى أسوأ منه. كان في سجن انفرادي مدة سنة ونصف السنة، بعد أن حُكم عليه بالإعدام، كان يشاهد أصدقاءه يؤخذون للإعدام بينما كان ينتظر المصير ذاته. لكن في عام 1987، أصدر صدام الذي كان يخسر الحرب، وكان بحاجة إلى مزيد من القوة البشرية، عفواً عاماً، ووجد ساري نفسه من جديد جندياً في الجيش العراقي. خدم في الحرب في مدينته البصرة في وحدة للدفاع الجوي. كانت البصرة في ذلك اليوم على الخطوط الأمامية، فقد كانت القوات الإيرانية على بعد سبعة أميال فقط، وكانت باستمرار تقصف المدينة عبر شط العرب. كان صدام قد شن الحرب ليستولي على الممر المائي ولمنع آية الله الخميني من إثارة الغالبية الشيعية المضطهدة من الثورة وتكوين الجمهورية الإسلامية العراقية. لكن حين انتهت الحرب العراقية الإيرانية عام 1988، بعد ثماني سنوات من الموجات البشرية والهجوم بالغاز، ومع هطول الصواريخ على العاصمتين، ومع أكثر من مليون إصابة، بقيت الحدود حيث كانت عام 1980 تماماً: في منتصف الممر المائي. قال إمارة حين التقيته في مكتب ساري في البصرة قبل الانتخابات مباشرة: «لم يربح أحد، وسل صداماً لأجل ماذا كانت الحرب».

جاءت الحرب الثانية إلى البصرة عام 1991، حين طردت قوات التحالف بقيادة أمريكة

قـوات صدام مـن الكويت. كان ساري قد أمضى ثلاث سنوات في بيتـه يقرأ التاريخ والشعر، وقد كان خائفاً من مغادرة المنزل، كما أن سجله جعل من الصعب أن يقبل في عمل. حين بدأ جنود الجيش العراقي المهزوم بالعودة نحو الشمال سيراً على الأقدام من الكويت إلى المدينة، منهكين وجائعين، باع بعضهم أسلحتهم لأهل البصرة مقابل علبة من السجائر أو مبلغ مالي يكفـي للوصول إلى بيوتهـم في الشمال. وفي صباح 2 آذار، وصل قريـب ساري إلى بيته ومعه أخبـار بـأن شباباً كانـوا يحاولون في أثناء الليـل إطلاق سراح مجموعة مـن أصدقائهم من السجـن في الحبانيـة، الحي الفقـير الواسع جنوب المدينـة، قد استولوا علـى قسم الشرطة وبـدؤوا بمهاجمة مكاتـب حزب البعث. كانت النساء في الشـوارع تصرخن: «يسقط صدام!» انجـرف ساري في انتفاضة عفوية. لم يكن لديه ما يخسره، وفجأة، لم يعد هناك ما يخشاه. قـال ساري: «لم يكن ذلـك قراراً، وإنمـا كان كحركة تاريخية لي. فيما يتعلـق بي سمعت أن النـاس بـدؤوا يتحركون ضد النظام وتحركـت أنا بدوري. هاجمت مبنـى المخابرات». سمى ساري الانتفاضة العراقية «عشرة أيام من السعادة».

في اليـوم الرابـع من الثورة التـي امتدت إلى مـدن أخرى، ظهر رجـلان يرتديان بذلات سوداء أمام جمع من الناس قرب مسجد في منطقة التميمية. وصلا بسيارة تويوتا لاند كروزر تحمل لوحات من طهران. كانا يتحدثان بلهجة منطقة الحدود الإيرانية، حث الرجلان سكان المنطقـة على تشكيل نقاط تفتيش حول المدينة وإيقاف تقدم جنود الحرس الجمهوري الذين أرسلهـم صدام لإحباط الثورة. كما طلبا من نساء البصرة ارتداء عباءات سوداء طويلة. في الوقـت نفسه تقريباً، تم إرسال خلية استخبارات من لواء بدر عبر الحدود من قبل المعارضة الشيعيـة المنفية في طهـران، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العـراق، لتنظيم الانتفاضة الفوضويـة ولإعطائهـا تركيزاً أيدلوجياً. ظهـرت صور آية الله محمد باقـر الحكيم، القائد الديني، في أنحاء البصرة، مع صور آية الله الخميني.

بعـد سبعة أيام من بداية الانتفاضة، مع اقتراب الحرس الجمهوري من مركز المدينة، كان سـاري يشـرف على المعـارك المنظمة في الشـوارع، حين لمح وجهاً مألوفـاً عن بعد: كان ذلك وجه يوسف الإمارة الذي كان في مهمة استطلاع للتحضير لهجوم مئتي مقاتل من لواء بـدر على الساحة الرئيسـة في البصرة وساحة البحرية. كان ساري يشك في لواء بدر، وكان

قلقاً من أن الانتفاضة التي بدأت حركة شعبية دون قالب طائفي -التي كان أول شهدائها، حسب قوله، شخص سني من الرمادي- سيسيطر عليها الشيعة المتدينون تحت السيطرة الإيرانية. ومع ذلك رحب برؤية إمارة بعد قرابة عقد من الزمن. قال ساري: «كنا في حرب. وكنا بحاجة لأي مساعدة». كان إمارة بعيداً، فلم يستطع ساري أن يتحدث إليه، لكن ساري كان يعتقد أن إمارة وغيره من أفراد بدر سيمدون المقاتلين المحليين بقاذفات صواريخ الكاتيوشا. ولم يتحقق هذا أبداً.

في الواقع، أمر قائد من قادة لواء بدر إمارة بسحب رجاله من البصرة والعودة إلى طهران. قيل له: إن مروحيات الجيش العراقي كانت تضرب المدينة بالنابالم. يتذكر إمارة: «فكرت: لماذا علينا أن نعود إذا تم استهداف عدد من الأفراد؟ كان الوضع مثالياً، وحين قلت هذا لقائدي، وجدت أنه لم يهتم. كان بارداً. لم أفهم ذلك حتى هذا اليوم». لكن ساري رأى أن إيران كان لها دور في الانسحاب. كانت الحكومة في طهران تخشى أن يكون صدام قد نصب فخاً لعملاء إيران.

في اليوم العاشر، انسحب إمارة وخلية بدر، وحسب قول قائد الانتفاضة، فقد منع الجيش الإيراني معارضي صدام العراقيين من عبور الحدود. بقي بضع مئات من العراقيين المحليين في البصرة لمقاومة الحرس الجمهوري، فيما وصل إلى مهمة انتحارية. كان الرجال يشنقون في سبطانات الدبابات، وأطلقت النار على آخرين حتى الموت، ودفنت جثثهم في مقابر جماعية. سمح وقف إطلاق النار بين الولايات المتحدة والعراق لصدام باستئناف استخدام الطائرات المروحية المسلحة وقصف المدنيين الفارين. ذُبح عشرات الآلاف من العراقيين في الجنوب. وكتب على دبابات الحرس الجمهوري شعار ساخر: «لا شيعة بعد اليوم».

في 17 مارس/ آذار، هرب ساري إلى الكويت، ووصل أخيراً إلى معسكر سجن أمريكي في السعودية، ومن هناك ذهب إلى المهجر في السويد، حيث ألف كتاباً عن الانتفاضة بعنوان (الموت القادم من الغرب). كان العنوان يشير إلى غرب العراق، الأراضي العراقية السنية التي كانت مركزاً لقادة الحرس الجمهوري. لكن كان هناك إشارة أكبر. فقد شعر ساري، شأنه شأن جميع من حدثوني قصة الانتفاضة في البصرة، بالخيانة من أمريكة

وإيران. قبل الانتفاضة بأسبوعين، كان بوش الأب قد طلب إلى العراقيين الإطاحة بصدام، وكانت النشرات التي تسقطها الطائرات الأمريكية تحث على الأمر ذاته. في الأيام الأولى للانتفاضة ظن العراقيون المنشقون أن الجيش الأمريكي كان في صفهم. قدم الجنود الأمريكيون المتمركزون جنوب البصرة في البداية المساعدة الطبية والغذائية للناس الذين يغادرون البصرة، وهاجمت الطائرات الأمريكية الدبابات العراقية. لكن المنشقين الذين تحدثت إليهم قالوا: إن الولايات المتحدة توقفت عن دعمهم فجأة. قال لي شخص عراقي: «طلب منا بوش أن نثور. وحين قمنا بالثورة، تم اصطيادنا». سأل بصراوي هرب إلى الحدود الكويتية الضباط الأمريكيين هناك: «هل تستطيعون مساعدة الناس الذين يموتون؟» فأجاب أحد الضباط: «نحن جيش ليس هناك ما نستطيع فعله. هذه هي السياسة».

لم تكن منطقة حظر الطيران التي سمحت للأكراد في الجبال الشمالية بالنجاة وتشكيل منطقة مستقلة ذاتياً ذات فائدة للشيعة في الأهوار والصحراء المنبسطة. قال أحد قواد الانتفاضة واسمه مفيد عبدالزهراء: «لم يدخل صدام حسين البيوت بالطائرات، كان يدخل سيراً على الأقدام، وبالسيارات». كان مفيد يدير مجموعة من المحاربين القدماء الذين تؤكد شهادات عضويتهم أنهم «من المشاركين في الانتفاضة، وقد أسهم بكل ما يملك وضحى بروحه، وبما يملك لإنقاذ المدينة، حتى اللحظة الأخيرة التي انتهت فيها الانتفاضة، حين اتحدت قوى الشر، الأمريكيون والبعثيون». بقيت المرارة حول أحداث 1991 قوية في البصرة، وساعدت في تفسير الحذر الذي استقبل به الشيعة، الأكثر فقراً وحرماناً من الحقوق، الغزو الأمريكي عام 2003. وفي رأي الكثير منهم، جاءت هزيمة صدام متأخرة اثني عشر عاماً.

عاد كل من إمارة وساري إلى بلدهما بعد سقوط صدام، لكن كما أنهما قد حاولا دفع الانتفاضة في اتجاهين منفصلين، فقد عادا من طهران وأستوكهولم برؤيتين مختلفتين بشدة للعراق الجديد: إحداهما إسلامية، والأخرى علمانية. أصبح إمارة وساري، الثائران السابقان، رجلين في منتصف العمر يرتديان بذلات مقلمة. كان لواء بدر الذي أصبح اسمه منظمة بدر، يعمل بحرية في البصرة -فالمحافظ عضو في منظمة بدر- وأصبح إمارة من كبار المسؤولين فيها. قبل أسابيع قليلة من يوم الانتخابات، تم تعيينه في مكتب وزارة الدفاع في المحافظة، الذي كان ساري موظفاً فيه أيضاً. كان من أولى تحركات إمارة في عمله

الجديد زيارة لمكتب ساري قبل ثلاثة أيام من الانتخابات. كان لديه عمل سياسي يناقشه. جلسا تحت لوحة جدارية تحيي ذكرى الانتفاضة، بعد إقناع ساري نفسه: كانت الصور التي فيها تؤكد على الصفة الوطنية للانتفاضة، حيث كان عليها شمس سومرية وسيف عربي وخنجر كردي، ورموز العمال والفلاحين. لم يلحظ إمارة أنه كان يعرف الرجل الجالس خلف المكتب، ولديهما تاريخ مشترك، إلى أن ذكره ساري، ثم أمضيا عدة ساعات يتحدثان عن الماضي التعيس.

بعد أن انتهى الحديث، وصل إمارة إلى النقطة التي أراد طرحها. كان يريد من ساري أن يوقف اتهامات الوزارة لإيران بالتدخل في الانتخابات. كان من المحتمل أن تحصل الأحزاب الدينية الشيعية على السلطة بعد الانتخابات، قال إمارة، مضيفاً: إن من مصلحة ساري أن يتعاون إذا أراد الاحتفاظ بمنصبه. لكن تجربة البصرة منذ سقوط صدام جعلت ساري يشك في الأحزاب السياسية. قال ساري لإمارة: «هذه هي الحقائق، نحن لا نختلق الأمر. إيران تتدخل». ولأنه وطني عراقي، لم يكن يرغب في التظاهر بالتحالف مع أناس يعملون عملاء لإيران. قال ساري بعد أن أوصل إمارة إلى خارج المكتب: «نحن ننظر إلى الأحزاب التي من إيران، نحن نأخذ العراقيين الصالحين. ونترك الآخرين».

بعد غزو عام 2003، عاد أكثر من مئة ألف من العراقيين الشيعة الذين هربوا أو أبعدوا إلى إيران، في أثناء حكم صدام، إلى جنوب العراق. وجاءت معهم الأحزاب السياسية الإسلامية التي كانت تمثل المعارضة الشيعية في الخارج: المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وجناحه العسكري، منظمة بدر، حزب الدعوة، الحزب الشيعي الأقدم الذي أبيدت كوادره داخل العراق تقريباً في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته وأحزاب أصغر مثل منظمة ثأر الله، وكان بعضهم مسلحين تابعين للمخابرات الإيرانية.

احتلت الأحزاب الدينية المباني الحكومية في البصرة، وشكلوا ميليشياتهم، وانتظموا أسرع من أي من المجموعات المحلية الأخرى، باستثناء أتباع مقتدى الصدر ذوي الأغلبية الفقيرة والعنيفة. اتصلت الأحزاب الدينية بسرعة مع الجيش البريطاني، وملأت قوات الشرطة الجديدة بكوادرها، وسيطرت على الحكومة المحلية في المحافظة. قال لي مسؤول بريطاني: «كانت لدى الأحزاب المدعومة من إيران رؤية إستراتيجية، هي الاستيلاء على

الجنوب سياسياً، والتعاون مع الائتلاف، ودعم مركزها الديني في النجف، ثم احتلال مركز للحصول على القوة الوطنية، أعتقد أنهم نجحوا دون دعم واسع، ولهذا فقد توسعوا كثيراً. وليس بسبب دعم كثير من الناس في الجنوب للأحزاب».

فرضت الأحزاب الدينية أيدلوجيتها الصارمة على البصرة، حيث عزلت كثيراً من السكان الذين كانوا حذرين من رجال الميليشيات الذين وقفوا في صف إيران في أثناء الحرب التي سببت كثيراً من المعاناة للمدينة. كانت الميليشيات تغتال البعثيين، وتتحرش بالنساء اللواتي يجرؤن على خلع الحجاب، وتغلق بالقوة متاجر الأقراص المضغوطة في البصرة ومتاجر الخمر التي يملكها النصارى. طالب أساتذة الجامعة المتحمسون بفصل الرجال عن النساء في الفصول الدراسية، وأخبرني طالب يدرس الموسيقى أنه لا يستطيع إلا أن يدرس النظريات الآن؛ لأن العزف على الآلات الموسيقية يعد غير أخلاقي من قبل الإسلاميين. لم تتقبل الطبقات ذات الثقافة العالمية في البصرة الأعراف الاجتماعية القسرية بسهولة، على الرغم من أن المدينة قد أصبحت محافظة بشكل متزايد تحت ثقل الحرب والحصار وتأثير إيران. كانت حكومة المحافظة تعد عاجزة وفاسدة على نطاق واسع، حيث يروى أن منتجات النفط كانت تهرب إلى أسواق الخليج. كانت لدى البصرة التي طالما أهملتها بغداد فرصة لتصبح محرك ازدهار اقتصادي في العراق؛ لكونها تحوي احتياطياً كبيراً من النفط، ومزارع النخيل، وميناء له موقع إستراتيجي. في مكتب المحافظ التقيت ممثلاً لشركة كويتية تخطط لإنشاء برج مكاتب من ثمانية وستين طابقاً -ليسمى برج التجارة العالمي- واستثمار بقيمة 5. 5 مليار دولار. لكن العنف والحكومة السيئة كانت تعوق ذلك في الوقت الحاضر.

قضيت عدة أيام مع الجيش البريطاني في البصرة وحولها. كان معظم الجنود مدربين على تكتيكات مكافحة التمرد في إيرلندة الشمالية، وكان وضعهم في جنوب العراق مختلفاً تماماً عن وضع الأمريكيين في الشمال. كانت عرباتهم أصغر وأقل تسليحاً، وكانوا يضعون قبعات في الدوريات التي يسيرون فيها على الأقدام، وكانوا بشكل عام يبدون مرتاحين أكثر جدًا بين العراقيين. كان بإمكان السيارات المحلية العبور بين قوافلهم دون الخوف من إطلاق النار عليها. حتى إن بعض الجنود البريطانيين كانوا يهزون رؤوسهم لرؤية حادث على

الطريق السريع قرب النصيرية، حيث أطلقت قافلة أمريكية تسير دون أضواء النار على مركبات بريطانية تسير خلفها. في حانة الجنود خارج القاعدة الجوية البريطانية (فعلى عكس الأمريكيين، كان يسمح للبريطانيين بالخروج لتناول البيرة مرتين في الليلة، وكان ذلك يبدو أساسياً للمحافظة على معنوياتهم العالية)، قال لي عريف: «الأمريكيون لا يفكرون. إنهم فقط يقومون بردود أفعال. وحين يأتون إلى هنا للتبادل فعلينا أن نقول لهم: ليس هناك خطر بعد. حين يصبح هناك خطر، سنخبركم. وحتى ذلك الوقت، اهدؤوا».

«سأشعر بخيبة الأمل إذا رأيت جندياً بريطانياً يشارك في محادثة أو تفاوض، وهو لا يزال يرتدي النظارات الشمسية»، قال لي الرائد ألان ريتشموند من الحرس الملكي في رحلة إلى جنوب البصرة إلى ميناء أم قصر. كان التدريب البريطاني للعراق يشمل بعض التعليمات اللغوية والتعريف ببعض الأمور الثقافية الحساسة (لا تظهر أسفل حذائك، ولا تمد يدك اليسرى، ولا تنظر إلى النساء). «أنت تريد أن تكون مقبولاً -بلطف، بلطف- تريد أن تكون قادراً على الكلام مع الناس؛ لأن الأمور تتم بهذا الشكل».

قال الرائد سايمون جونز: «هذا يأتي أيضاً من خمسين عاماً من الانسحاب من الإمبراطورية، هناك مخاطر فيما نفعله هنا، لكن الفائدة على المدى البعيد مهمة مقارنة بالمواجهة المطلقة. ومع ذلك، في نقطة معينة، عليك أن تقاتل». وأضاف بسرعة أن البريطانيين ربما لم يكونوا ليحققوا هذا النجاح في مدن معادية أكثر مثل بغداد أو الموصل التي يتعرض الأمريكيون فيها للهجوم بشكل مستمر. حين انتقلت إحدى وحدات الحرس الملكي إلى قطاع قريب من الفلوجة تمهيداً لهجوم أمريكي على المدينة، قتل انتحاري ثلاثة جنود عند نقطة تفتيش، وعلى الفور شدد البريطانيون قواعد الاشتباك لديهم.

كان من الواضح أن التصور في العراق -الاحتلال، وإعادة الإعمار، ومكافحة التمرد- كان أسهل للجنود البريطانيين مما كان للأمريكيين. أخبرني عدد من الضباط أن هذه الأنواع من العمليات كانت في صلب التعاليم العسكرية البريطانية ودورها في عالم ما بعد الحرب العالمية الباردة. في المقابل، كان الضباط الأمريكيون في العراق يريدون العودة إلى العمل الحقيقي للجيش، وهو التدريب على الحرب وخوضها، أو أنهم فهموا أن العراق هو عملهم الحقيقي،

لكنهـم اعترفوا أيضاً بـأن هذا لم يصل تماماً إلى قيادتهم العليـا. كان للعراق تأثير جوهري بين صغار الضباط من ملازمين ونقباء ومساعدين، وكان كثير ممن التقيتهم يعلمون أنفسهم ويعلمـون بعضهم كيفية القيام بذلك بالشكل الصحيح. لكن حتى جون بريور عاد من العراق، وهو يعرف أن تجربته الطويلة في الزعفرانية ستحقق له بعض الفوائد في مهنته.

كانـت النتيجة وجود احتـكاك أكبر بين الجنود الأجانب والمدنيـين العراقيين في البصرة ممـا في المناطق التي تحتلها القوات الأمريكية. في الوقـت نفسه، كان بعض السكان المحليين يتذمـرون من أن البريطانيين لم يكونوا راغبـين في فرض النظام في البصرة. في أغسطس/ آب 2004 في أثنـاء ثورة عمـت البلاد لجيش المهدي، تخلى الجيش البريطاني عن سيطرته علـى المدينة لأتباع الصدر الذين كانوا مدعومين من قبل رئيس الشرطة. وفي جنوب العراق، الـذي كان تحـت سيطرة غير أمريكية منذ عام 2003، كانـت سلطة الحكومة ضعيفة بشدة، وكانت عدة ميليشيات شيعية تتمتع بحرية الدخول والخروج في الشوارع.

كان موضوع الدور الإيراني في العنف السياسي والاضطهاد الديني في البصرة موضوعاً كئيباً. على حد زعم ماجد الساري كانت الإجابة بسيطة، فقد قال: «ليس هنا (تأثير) إيراني في البصرة. هناك احتلال إيراني غير مباشر في البصرة». كانت الأحزاب الدينية العراقية عميلة للاحتلال، أضاف ساري، بالرغم من أنه ميز بين المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وحزب الدعوة، اللذين يعتمدان على طهران مثلاً، وبين الأحزاب الأصغر التي كانت تعمـل بصفة أسلحة مستأجـرة. وقال: إن إيران كانت تريد أن تمنع إقامة ديمقراطية ودولة علمانيـة في البلـد المجاور لها، كمـا أنها كانت تأمل «أن تضع قـوات الجيش الأمريكي داخل غيمـة من الفوضى العراقية؛ حتى لا تستطيع ضرب إيران بالقوة العسكرية». وقد زعم عدد من الناس في البصرة أن منزل الحاكم الاستعماري القديم في الكورنيش كان محتلاً من قبل عناصـر الاستخبارات الإيرانية. وحسب قول مسؤول غربي، فقد كانت حقائب الأموال تنقل باستمـرار عبر ما كان يفترض أنه حدود دولية. وحين قام رئيس الوزراء إياد علاوي بزيارة للبصـرة في نوفمبر/ تشرين الثـاني 2004، سأل المحافظ: «لمـاذا لا ترفعون العلم الإيراني فـوق مكاتبكـم؟» ومع ذلك لم يبدُ أن أحداً كان يعرف من هـم الإيرانيون. قال مزارع اسمه ماجد موسى، كان يحضر اجتماعاً تثقيفياً للناخبين في حرم جامعة البصرة: «إنهم لا يأتون

إلى هنا على هيئة إيرانيين يحملون الأعلام».

كان المسؤولون البريطانيون يرون أن لدى إيران مصلحة شرعية في العراق: وهي تأسيس دولة جوار مستقرة وصديقة. قال سايمون كوليز، القنصل البريطاني في البصرة، عن الأحزاب الدينية: «هذه المنظمات لها ارتباطات مع إيران بالفعل. هل هي ملك لإيران؟ لا أعتقد ذلك. إذا أردت أن تحارب الاستبداد في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، فإن إيران هي العنوان. ليس من الواضح لي أن هذه الروابط التي كانت ولاتزال بينها وبين إيران بلا شك تعني أن هناك رجال دين في (قم) يستطيعون تحريكها عن بعد». كما أقر مسؤول بريطاني لم يكشف عن اسمه: «لقد وصلت إلى رأي أننا لا نستطيع أن نعرف الغرباء. فأنظمة اتصالاتهم أكثر سرعة ودقة من أنظمة اتصالاتنا. نحن نفخر بالبريد الإلكتروني وأجهزة الحاسوب التي لدينا. لكنها أبطأ جدًا من الكلام المنقول شفهياً».

في مشفى الأمومة والطفولة في البصرة بمنطقة الجزار، كان د. محمد نصير، مدير المشفى، يقاوم الأحزاب الدينية التي استولت على المشافي الأخرى في المدينة وعلى الحرم الجامعي فيها. كان لنصير وجه قاسٍ وشعر ناعم من الخلف، فكان يبدو كويليس ستارك في رواية «كل رجال الملك/ All the King's Men لبرودريك كروفورد، كان يبدو أشبه بسياسي منه بمدير مشفى. لم تكن في مشفاه صور دينية، ولم تكن هناك إلا الملصقات التي تدعو إلى الانتخابات التي تحمل صور اللجنة الانتخابية ومناظر المروج المبهجة داخل إطارات ذهبية كانت فيها في الماضي صور صدام حسين. في عام 2004، كانت إحدى الميليشيات الدينية قد طلبت استخدام جدار من الآجر؛ لتغطيه بالإعلانات السياسية. فقال نصير: «عودوا صباح الغد». وفي ذلك اليوم هدم الجدار. وبعد بضعة أشهر، تم ضبط إحدى الممرضات، وهي تشاهد فيلماً خليعاً مع صديقها موظف الاستقبال. وحين أمر نصير بنقل موظف الاستقبال إلى مشفى آخر، ذهب أصدقاء الموظف إلى مكتب الصدر في المدينة، وشكوا أن نصيراً قام بتمزيق صور محمد صادق الصدر، والد مقتدى الشهيد. تحدى رجال الميليشيا الطبيب وطالبوه بإلغاء أمر النقل. ذكر نصير بتسلية: «قالوا: إنه يجب محاكمتي من قبل محكمة دينية في النجف»، سلح نصير نفسه، واستخدم قوة الأمن في المشفى، وواجه الدخلاء بأعصاب قوية.

أصبح المشفى الآن نموذجاً للنظام. قال نصير حين كنا نمشي في الممرات، وزرنا جناح

التغذيـة الجديد الذي بنتـه الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ضمـن مشروع إنقاذ الأطفال: «نحـن بحاجـة إلى أناس محترفين لديهم خبرة في عملهـم، ولا ينتمون إلا للعراق، وليس لأي مجموعة، ويتمتعون بالشجاعة»، كان الدكتور يعلق الآمال على انتخابات ديمقراطية وحكومة قويـة لإنقاذ العراق من الفوضـى. وكان ذلك النوع من العلمانية يدور حول القانون والنظام: كان يريـد أن يمارس الطب دون تدخـل ديني. وقال: «ليس لدينا حل وسـط. فإما أن تستمر الحريـة أو أن البلاد كلهـا ستدمر. إذا تكلمت فسأتكلم. إذا حاربت فسأحارب؛ لأن عليك أن تحمي نفسك. وإذا مت فعليك أن تموت بشرف. يجب ألا تموت جباناً».

على بعد نصف ميل في الشارع نفسه، أمام مقر حزب الفضيلة، وضع أحدهم لافتة كبيرة ذات ألوان زاهية: عليها صورة رجل عجوز له لحية بيضاء، يقف أمام سماء مشتعلة، ويدفع قارباً محملاً بالمهاجرين عبر محيط بلون الصحراء نحو مرقد الإمام علي ذي القبة الذهبية في النجف. كان ذلك الرجل هو والد مقتدى الصدر. فمؤسس حزب الفضيلة، آية الله محمد اليعقوبي، ادعى أن والد مقتدى اختاره خليفة له، قبل قتله على يد العملاء البعثيين، وبذلك يكـون اليعقوبي، وليـس مقتدى، هو الوريث الأصلي للشيعيـة العراقية المتشددة. كان لحزب الفضيلـة العدد الأكبر من الأتباع من الطبقات المثقفـة المتدينة الذين كانوا يريدون حكومة إسلامية صارمة، ولكنها مستقلة عن إيران.

جلس د. حيدر محسن الطبيب الشاب المتحمس المختص في الطب الباطني تحت صورة لآيـة الله يعقوبي وشرح فلسفة حزب الفضيلة، بينما كان في الغرفة المجاورة موظفو الحملة مـن الرجال ذوي اللحى والسـتر الجلدية يأتون ويذهبون في موجة نشـاط قبل الانتخابات. قال محسن: «فكرة جان جاك روسو، وأفكار الثورة الفرنسية: نعتقد أن هذه الأفكار مناسبة للمجتمـع الأوروبي، لكن المسافة بعيدة جدًا بين العـراق والمجتمعات الأوروبية، بين الإسلام والثـورة الفرنسية». وقـال إن الإمبريالية الثقافية هي أخطر أنـواع الإمبريالية، وإن العراق بحاجـة إلى مقاومـة موجـة المعنويات المنخفضـة والفرديـة المنتشرة القادمة مـن الغرب. قـال محسـن: «من الأسباب التي أدت إلى خسارة فرنسة في الحـرب العالمية الثانية الحرية الجنسية»، وأضاف بسرعة أن أسلمة العراق يجب أن تتم بوسائل ديمقراطية دستورية كاملة تحـترم حقوق الأقليـات الدينية. كان محسن أيضاً لا يثـق في التصميم الإيراني والأمريكي

للعـراق، وقال: إنه ليـس هناك بلد سوى العراق، يمكن أن يحـوي كل هذه المصالح بداخله. ويعتقد محسـن أن الانتخابات ستسمح للعراق بأن يجد التوازن المثالي بين الدولة والمسجد، بموافقة الشعب كاملاً.

كان ماجد الساري يعبر عن الرأي المعارض بقوة. قال ساري: «جميع التشريعات الإسلامية منـذ زمن النبيﷺ وحتى يومنا هـذا لا تظهر قبولاً للديمقراطيـة، أروني أي بلد فيه قيادة إسلاميـة يمكن أن يقبـل أشخاصاً ديمقراطيين. أين يمكن أن يحـدث ذلك؟ في السعودية؟ في إيـران؟ لا أعتقد ذلك، لا. أما العلمانيون والشيوعيون، فقد قبلوا الديمقراطية. لا أعتقد أن الأحزاب الإسلامية ستقبل من يعارضها». وشبه ساري فكرة الحكم الشيعي القائم على حـزب واحد في العراق باستبـداد حزب البعث. وقال لهذا السبب: «الدين شيء بين الإنسان وبـين الله، ويجب أن يكون بعيداً عـن السياسة». وأضاف ساري الذي كان محاطاً بما لا يقل عـن ستة من رجـال الحرس الوطني لحمايته: «أنـا الوحيد الذي يستطيـع أن يقول هذا في البصـرة، وأنا أعلـم ذلك، في أي وقت، يمكن أن أتحول إلى دخـان؛ لأنهم يمكن أن يفجروا مكتبي».

كلمـة «علماني» هي تعبير جديد مشتق مـن كلمة «عالم». ولم تكن تسمع غالباً على الملأ؛ لأنها لدى كثير من العراقيين تعني «ملحداً». وكما قال هاشم الجزائري، عميد كلية الحقوق في جامعـة البصرة: «هذا ليـس وقتاً مناسباً للإلحاد. الله يغفر، لكـن الناس لا يغفرون. لا أدري إن كنت سأذهب إلى الجنة أم النار، لكنني أستطيع أن أقول: اللهم، اغفر لي. أما هنا فإن الناس لا يغفرون».

في البصرة، لم تكن المواجهة بين الأطباء ورجال الميليشيات، وبين التكنوقراط والأحزاب الدينيـة، مجـرد أسلحة وملصقـات. في الأيام التـي سبقت الانتخابـات، أصبحت البصرة مسرحـاً لصـراع سياسي ملتهب بين لغـات وأفكار متنافسة. فكرة مجتمـع قائم على القيم الإسلامية والسلطة الدينية التي كانت تعني من كل بد رؤية طائفية شيعية، جسدتها القائمة رقـم 169 التـي كان الناس يسمونهـا قائمة السيستـاني؛ لأن آية الله العظمـى كان قد تنبأ

بتشكيل ائتلاف شيعي. وفكرة مجتمع قائم على القانون المدني، تكون الأسبقية للعراقيين على الهوية الإثنية والدينية، في محاولة لمعالجة الانقسامات العميقة في البلاد، كانت تمثلها القائمة رقم 285، التي يرأسها إياد علاوي. لم يكن الناس يحبون علاوي نفسه كثيراً، لكنهم ببساطة كانوا يقولون: إنه رجل مثقف، طبيب، مما بدا تجسيداً لمجتمع علماني. لكن السيستاني كان أكثر رجل موقر في العراق، بالرغم من أنه كان إيرانياً، ولم يكن مرشحاً لأي شيء. كانت هناك تناقضات وأوهام في كلا الطرفين. كان مؤيدو علاوي يتحدثون عن حكومة جيدة بالرغم من أن إدارته كانت متهمة بالفساد بشكل كبير، أما مؤيدو القائمة 169 فكانوا يتحدثون عن اتباع المرجعية، بالرغم من أن السيستاني الذي تظهر صورته على كثير من ملصقات القائمة 169، لم يدعم رسمياً القائمة التي كان له دور كبير في تشكيلها. لم تقل فتواه إلا أنه على المسلمين والمسلمات واجب ديني هو أن ينتخبوا.

كانت البصرة بشكل ما تسبق بقية مدن العراق. ففي المدن الأخرى كان السؤال هل ننتخب أم لا؟ أما في البصرة فقد كان السؤال هو هل ننتخب السيستاني أو علاوي، حيث كان فيها العنف على مستوى يمكن التحكم فيه نسبياً، حيث وقعت جريمتا قتل لمرشحين علمانيين، وثلاثة أو أربعة تفجيرات لسيارات، وبعض الهجمات على مراكز انتخابية، وإشاعات عن توجه الجهاديين نحو الجنوب من المناطق السنية لإثارة الفوضى في يوم الانتخابات.

كتبت الأحزاب الدينية أغنية لحملتها الانتخابية مع الآلات الموسيقية، وكانت تذيعها عبر مكبرات الصوت من قوافل من الشاحنات الصغيرة:

على جميع الناس انتخاب القائمة 169

لأنها تضم من كانوا في السجون

الذين دفن آباؤهم وإخوانهم في المقابر الجماعية،

والنساء اللواتي قدمن أبناءهن

الذين ضحوا من أجل العراق.

هذا ما يريده علماء الدين.

169 كالحديقة للعراقيين

والعراقيون كالزهور

وهذه الزهور تنمو من دماء

أولئك الذين قدموا أرواحهم للعراق

الله أكبر!

هذا هو اليوم الذي يعطي فيه الشيعة أصواتهم

أما علاوي، فقد كان بدوره يغرق القنوات التلفازية العربية بالإعلانات الانتخابية البارعة التي يدفع لها من الصناديق الرسمية، وكانت حكومته قد وعدت مؤخراً بزيادة أجور العمال المدنيين وضباط الشرطة. كانت بطاقته تكسب أرضية في مناطق الأقليات السنية والمسيحية في البصرة، وكذلك في صفوف المهنيين المتعلمين. في الأيام التي سبقت الانتخابات، أخبرني عدد من البصريين أنهم شعروا باندفاع نحو علاوي. كان اليوم السابق للانتخابات عيداً يدعى غدير خم. في عام 632، حين كان محمد ﷺ عائداً إلى المدينة من حجة الوداع، ويُعتقد أنه توقف عند بركة ماء راكد، أو غدير، في الصحراء وأمسك بيد ابن عمه وصهره علي، وقال النبي ﷺ للعالم: «من كنت مولاه فعلي مولاه». المسلمون الذين فسروا كلمة مولى بمعنى «سيد» واعتقدوا أن علياً هو الخليفة الذي اختاره الرسول ﷺ أصبحوا شيعة لعلي وابنه الحسين وجميع الأئمة من سلالته حتى الإمام الثاني عشر والأخير، المهدي المنتظر الذي سيبشر ظهوره بنهاية العالم. أما أولئك الذين فسروا كلمة مولى بمعنى «صديق»، الذين آمنوا برواية مختلفة تماماً لمن يخلف محمداً ﷺ، فقد أصبحوا من السنة. لذا فإن غدير خم يحدد بداية انشقاق كبير بين المسلمين، وكان الشيعة العرب هم الخاسرين منه عبر التاريخ، حيث عاشوا قروناً تحت السلطة الدينية للخلفاء السنيين، وأخيراً تحت السلطة الدنيوية للسياسيين السنيين حتى في العراق ذي الأغلبية الشيعية. لم ينجح الشيعة في الانضمام إلى الحكومة العراقية الأولى، في ظل الاحتلال البريطاني في عشرينيات القرن العشرين، بسبب فتوى، وفي أثناء حكم نظام صدام قُتل قادتهم بشكل

منظم. فيما يخص العراقيين العلمانيين، كانت الانتخابات الديمقراطية الفعلية الأولى في البلاد تعني أنهم يستطيعون أخيراً النجاة من كابوس سنوات صدام والانضمام إلى العالم المتحضر. أما ما يتعلق بالشيعة المتدينين بعد فاستشهاد علي والحسين، وبعد قرون من الندم والانعزال والمعاناة، فستمنحهم الانتخابات نصيبهم الشرعي من القوة وتصحح خطأً تاريخياً يعود إلى ألف عام.

في يوم الجمعة الذي سبق الانتخابات، في مسجد الحاكمية، الذي يقع أمام شارع تجاري مزدحم قرب مبنى المخابرات المدمر، قدم الإمام محمد البصري خطبة الجمعة للرجال الذين احتشدوا في المسجد الصغير. كانت كلماته تدوي عبر مكبر الصوت إلى الحي المجاور. كان في الحادية والثلاثين من عمره، وكان متخصصاً في علم الأحياء، يضع نظارات ذات إطار مربع، وقد فقد إحدى أسنانه الأمامية. حرص على أن يفهم قومه أهمية أن يوم الانتخابات هو اليوم اللاحق لغدير خم. فالشيعة عادةً يذهبون إلى النجف في يوم غدير خم لزيارة مرقد الإمام علي، لكن هذا العام، بصفة جزء من الجهود الأمنية للانتخابات، سيكون هناك حظر في جميع أنحاء البلاد على سير المركبات بدءاً من ليلة الانتخابات. قال الإمام: «يمكنكم أن تفعلوا شيئاً قد يكون أهم من هذه الزيارة. سنوضح حقوقنا. وهذا أهم كثيراً من زيارة النجف في اليوم المناسب».

ارتفع صوت الإمام، بينما كان يحاول أن يثير الرجال الجاثين أمامه: «بعد غد يوم الانتخابات، سيكون يوماً عظيماً، وعلينا أن نستعد لهذا اليوم، كما نستعد لأي عيد إسلامي آخر؛ لأن هذا اليوم سيجلب النصر للذين عانوا الظلم. في هذا اليوم ستنتهي معاناة الناس. وفي هذا اليوم سيتخلص الضحية من الشخص الذي أساء إليه». وأعلن الإمام أن الشيعة في يوم الانتخابات سيتبعون مرجعيتهم، علماء الدين، ورثة علي وآله، الورثة الحقيقيين للنبي ﷺ. كانت كلمة مرجع تشبه كلمة النبي، وكان اتباع المرجعية يعني القبول بخلافة علي، كان هذا هو الرابط الشرعي بين غدير خم ويوم الانتخابات. ثم وصل الإمام إلى النقطة المهمة في الخطبة: «وضعت المرجعية قائمة ودعمتها، وهي الائتلاف العراقي الموحد، الذي يحمل الرقم 169، ورمزه الشمعة، هل من أحد لم يسمعني؟ أريد أن تصل هذه الكلمة حتى إلى مكبرات الصوت الخارجية؛ حتى لا يستطيع أحد أن يقول: إن هذا كذب. ولا أريد أن أسمع أن

المرجعية لم تدعم هذه القائمة».

كان الإمـام يغامر علـى أرضية متناقضة (وحين التقيته بعد ذلـك، رفض أن يناقش أياً مـن ذلـك). ادعت الأحزاب الأخرى أن السيستاني الذي لا يشك أحد في أنه ساعد في وضع القائمـة رقم 169، بارك جميع القوائـم، ورفضت بشدة أن ترى صورتـه قد بدأت بالظهور علـى شعارات حملة القائمة 169. لم يقل السيستاني نفسه شيئاً لحسم الخلاف. كان رجال الديـن قد ابتعدوا عن ذلك سابقاً. والآن لم يكـن الإمام البصري راضياً عن مجرد توضيح الشك بدعم السيستاني للقائمة 169؛ بل إنه أشار إلى أن حكومة علاوي كانت تحاول رشوة الناخبـين، وذلـك عن طريق زيـادة الأجور. قـال الإمام: «أنـا أذكرك أن المـوت قريب من الجميـع. لا أحـد يعلم متى سيموت، ربما يموت في أي لحظة. فماذا سيقول لله؟ هل سيقول: إنه انتخب قائمة محددة؛ لأنهم أعطوه المال؟ كيف سيقابل ربه بهذه الإجابة؟».

ثـم أخـبر الإمـام قومه بوقت بـدء الانتخابـات وانتهائها، وبعـدد الهويـات التي عليهم إحضارهـا، وكيفيـة إيجـاد القائمة 169 علـى أوراق الاقـتراع، وكيفية الإشـارة على المربع الصحيـح. وحـين بدا راضياً عن توضيـح هذه التعليمات ختم الخطبـة بقوله: «سيكون الله معكم في ذلك اليوم، فلا تخافوا من أي شيء، لا تخافوا من الإرهابيين. على شيعة الحسين أن يذكروا هذا القول: هيهات منا الذلة وسنذهب للانتخاب».

كان صبـاح يوم الأحـد غريباً وجميلاً. كانـت شوارع البصرة هادئـة، لدرجة أن الناس قالـوا فيمـا بعـد: إنه كان كيـوم عيد. كانـت الأسر، بمن فيهـا الأطفال الصغـار والشيوخ، يمشـون في الدروب، الجميع يرتدي ملابس مرتبة. كان كثـير من البصريين الذين تحدثت إليهـم قـد ناقشوا مع أسرهـم ما سيفعلونه يـوم الانتخابات، وهل من الآمـن أكثر الذهاب في الصبـاح أو المسـاء، وهل مـن الأفضل خسارة واحـد أو اثنين من أفـراد الأسرة فقط أو أن تمـوت الأسرة معاً. وقف رجال الشرطة ورجـال الحرس الوطني في تقاطعات الطرق كل بضع مئـات من الياردات، وجثم القناصة على سطوح المباني الحكومية في المحافظة. دُهش النـاس الذين كانوا في طريقهـم لمراكز الانتخابات لرؤية الرجال بالـزي العسكري يقومون بأعمالهـم بالفعل. بحلول الساعة السابعة والنصف صباحـاً، في المدارس التي تم اختيارها مراكـز انتخابية، كان الناخبـون في صفوف، وكانت الصفوف منظمـة والوجوه جادة بعض

الشـيء. تقدم الناس للتفتيش دون شكـوى كانوا يخفضون أصواتهم باحترام. كان العاملون في المراكـز الانتخابية -من مدرسـين وربات بيوت وخريجين جامعيـين عاطلين عن العمل- يضعون شارات على قمصانهم. سلموا أوراق الاقتراع بجدية فيها بعض المبالغة، حيث كانوا يؤدون عملاً صغيراً لكنه مهم، كأساتذة الجامعة الذين يوزعون أوراق الامتحانات النهائية. كانـوا يرشدون الناخبين؛ ليضعوا السبابة اليمنى في زجاجة الحبر البنفسجي المملوءة حتى المنتصـف. وكان العاملون في مراكز الانتخاب أشخاصاً عاديين في أي يوم آخر، لكن الناس شكروهـم وكأنهـم أبطال عـام 1991. كانت أوراق الاقـتراع ذات اللون البيـج للانتخابات الوطنيـة، والأزرق لانتخابـات المحافظة - كبيرة ومليئة برموز الاحـزاب. كانت تبدو نظيفة وجديدة أكثر من أي شيء آخر رأيته في العراق.

في المدرسـة الجمهوريـة التي تقع قريباً من شارع الاستقـلال، ذهبت شذا محمد علي، وهـي ربة بيت في الخمسين من العمر ترتدي وشاحاً أنيقاً أحمر وأسود، للانتخاب في اليوم الأول. قالت شذا: «أمضيت خمساً وثلاثين سنة من عمري أنتقل من حرب إلى أخرى. والآن آمـالي لأولادي. نحن فقدنـا مستقبلنا، لكننا نبحـث عن مستقبل أطفالنـا». وقال محسن هاشـم، وهو مدرس للغة العربية في المدرسـة ومدير المركز الانتخابي: «لقد عشت أكثر من خمسين عاماً، ولم أشعر بشعور كهذا. أشعر بقشعريرة تسري في جلدي. كان لدينا حضارة عظيمة منذ ستة آلاف عام، وأنا أشعر أننا نثبت إنسانيتنا الآن. نرجو أن تأتي هذه التجربة الديمقراطيـة بهـذه النتيجة، إن الناس هـم المالكون الحقيقيون للقـرارات في هذا البلد». كان يرتـدي سـترةً باليـةً بعض الشـيء وربطة عنق زهريـة، وكان وجهه متوتـراً، وشارباه مقصوصان بعناية. قال هاشم، مشيراً إلى الحي السني في جنوب البصرة: «هناك إشاعة أنهم سمموا مخزون المياه في الزبير هذا الصباح»، (ثبت أن الإشاعة كاذبة)، «لا يهمنا ما يفعله الإرهابيون. فقد جربوا كل شيء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء. وتسميم المياه يظهر أنهم يائسون».

نحو الساعة 8:20، اهتزت المدرسة قليلاً، حين سقطت قذيفة هاون على بعد بضع مئات الأميـال. تمتـم أحدهم: قال ليث محمـد شاكر، وهو شرطي مـرور في الثانية والثلاثين من عمـره كان قد أحضر معه أولاده: «يلـلا، لا مشكلة، لا مشكلة؛ ما نفعله الآن هـو عمل عظيم

ضد الإرهاب. إنه تحدٍ لهم: نحن ننتخب، ماذا بإمكانهم أن يفعلوا؟».

تذكر بعض الناخبين الانتخابات الوحيدة التي عرفوها، المهازل التي كانت تؤكد شعبية صدام. كان لديهم خيار بين مربع يحمل كلمة نعم، وآخر يحمل كلمة لا، وفي بعض الأحيان، كان العاملون في المركز الانتخابي يقومون بالتصويت عنهم ببساطة. أما هذه المرة فإن كثيراً من الناس يمارسون حقهم المكتسب حديثاً بالاحتفاظ بخياراتهم لأنفسهم. لم يقبل فيصل جاسم، وهو عامل متقاعد في شركة نفط أن يكشف عن اختياره. وقد كان من بين المصلين الذين استمعوا إلى تعليمات الإمام البصري. كان الأمر الذي يهمه هو تجربة الانتخاب بحرية للمرة الأولى في سن السبعين. قال جاسم: «معظم العراقيين لا يعرفون معنى الديمقراطية، هل هي حلوة أم مرة؟ هل لها مذاق أو رائحة؟ نحن لا نعرف. لكننا سنعرف بعد الانتخابات».

في أحد مراكز الاقتراع، التقيت عبد الكاظم حسين عبود، وهو عقيد في الحرس الوطني يرتدي الزي العسكري، هش البنية، مهيب الوجه، له عينان سوداوان ثاقبتان. كان في السادسة والخمسين من عمره، وقد كان أسير حرب في إيران مدة سبع عشرة سنة، في مقتبل حياته؛ أُطلق سراحه وعاد إلى البصرة قبل يومين من بداية الحرب عام 2003 وكان شديد السعادة لرؤية أولاده الصغار قد كبروا، وأصبح منهم المهندس والطبيب. رفع العقيد عبود أصابعه الأربع، مشيراً إلى أن لديه أربعة أولاد: كانت سبابته ملطخة بالحبر.

كان مترجمي في البصرة طبيباً شاباً حزيناً يعاني السمنة، وكان من بغداد واسمه عمر. بعد سقوط القذائف الأولى على المدينة في آذار عام 2003، بقي عمر في المشفى الذي كان يعمل فيه ثلاثة أسابيع لمعالجة الجرحى، ثم لطرد الناهبين حين انهار النظام؛ وفي النهاية كان واحداً من خمسة أطباء لم يتركوا الخدمة. كان يمل بسهولة، حتى في أثناء الاحتلال، حين كانت الانفجارات التي لا تنتهي والأعداد الكبيرة للإصابات تعني أن كل طبيب شاب يصبح مختصاً في الجروح الصعبة. قال عمر، السني العلماني الذي لا يملك آراء سياسية قوية: إن يوم الانتخابات كان «مجرد يوم آخر». كان يشعر كذلك إلى أن قال فجأة، بينما كنا على وشك مغادرة أحد مراكز الاقتراع، بعد الحديث مع عدد من الناخبين: «انتظر أرجوك!» عاد إلى الداخل، وطلب من موظفي المركز أن يسمحوا له بالانتخاب، على الرغم من أنه

مسجل في بغداد. خرج عمر البارد متوهجاً، وقال: «لدي شعور رائع!».

عاش والده في العامرية، وهو حي يقع غرب بغداد قرب طريق المطار الخطر الذي كان يُعرف بأنه مُستنبت التمرد. لم يكن أحد في الأسرة يعرف أن عمر يعمل مع الغربيين للحصول على الرزق. كان طوال الصباح يحاول الاتصال بالبيت؛ ليعرف إن كانت أسرته قد انتخبت، وفي الظهيرة دهش حين سمع أن والدته وإخوته، بعد أن نظروا من الباب الأمامي فوجدوا جيرانهم يخرجون إلى الشارع، أسرعوا إلى مركز الانتخاب هم أيضاً. عادوا إلى البيت بأمان، وقبل أن يحل الليل حتى والده، الضابط المتقاعد الذي أصبح متطرفاً سنياً في السنوات الأخيرة، حسدهم على أطراف أصابعهم الأرجوانية، وعلى الإثارة الهائلة التي تنتشر في بغداد وفي معظم مدن العراق، لدرجة أنه ذهب أيضاً للانتخاب. أما علي، صديق عمر المقرب، الذي كان يعيش أيضاً في العامرية، فقد قام بثلاث محاولات للانتخاب، في المرة الأولى، وصل علي إلى منتصف الطريق حين رأى صديقاً له يُعرف بتعاطفه مع التمرد فحياه بشك وسأله: «أين أنت ذاهب؟». فقال علي: «سأحضر بعض الخبز». قال صديقه: «سأذهب معك. فذهب علي إلى المخبز؛ ليحضر رغيفاً من الخبز لم يكن بحاجة إليه. وبعد بضع ساعات، حاول مجدداً، فأوقفه بعض الرجال الخارجين من المسجد قائلين: «أين أنت ذاهب؟» فقال: «إلى الصيدلية، لأحضر الدواء لعمتي». قال الرجال: «سنذهب معك». وحين وصلوا إلى الصيدلية ادعى علي أنه نسي الوصفة في البيت. وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم، حين كانت مراكز الاقتراع تستعد لإغلاق أبوابها، حزن علي الذي كان يشاهد الناس على شاشة التلفاز طوال اليوم يصطفون للاقتراع، واتصل بعمر في البصرة. أرشده عمر بصبر إلى مركز انتخابي على بعد ميلين في الشوارع الخلفية للعامرية، وحين وصل علي وجد أنه ليس مركزه الانتخابي: فقد كان من المفترض أن ينتخب في المدرسة التي خلف بيته. وما إن وصل إلى البيت حتى مسحت أمه بذعر الحبر عن إصبعه بالكلور.

عدت إلى المدرسة الجمهورية في البصرة قبل إقفال مراكز الانتخاب، عند الغسق. كان آخر الناس في الصف هو عبيد حميد، وهو شرطي كان مشغولاً طوال اليوم لدرجة أنه كاد ينسى الانتخاب. قال حميد: «ليس المهم من أختار. أنا أريد المشاركة فقط». أغلقت البوابة الخارجية، وسمح لي بالبقاء لمشاهدة فرز الأصوات. تم جمع أوراق الاقتراع في حزم

مـن خمس وعشرين ورقة، ثم وضعت، واحدة تلو الأخـرى على طاولة خشبية وسط غرفة رياضيـات للصف السادس. كانـت يد الشخص الذي يقوم بالعد، وهـو مدرس رياضيات اسمـه صالح يونس مهدي، مشوهـة: لم يكن لديه إلا الأصابع الثلاث الوسطى وكانت ذات غشاء واحد. كانت يده تمر بسرعة على الأوراق كالمسطرة، وكان يضرب الورقة حين يصل إلى المربـع، ثـم يقول الرقم. أمـا أحمد صالح مهـدي، وهو مدرس عجـوز للصف الأول، فقـد وقف بصمت عند السبـورة، وكان يسجل الأصوات في مجموعات من خمسة أصوات. ووقـف المراقبون من الأحزاب ومـن لجنة الانتخابات ينظرون إليهـم. وحين انقطع التيار الكهربائـي، كما هو متوقع، أشعلـت المصابيح الزيتية، وأصبحـت في غرفة الصف ظلال طويلة ووجوه مضاءة.

كان العدد النهائي في المدرسة الجمهورية 721 لقائمة علاوي، و595 لقائمة السيستاني، وعـدد من الأصوات الموزعة على الآخرين. كان العدد الكلي لأوراق الاقتراع الموزعة أكثر من الأصـوات التي تم إحصاؤها باثنين، وهكذا وقف الرجال حول الطاولة التي في وسط الغرفة نصـف ساعة أخرى، يعيدون الحسابات مـراراً، إلى أن اكتشفوا أن هناك ورقتين فارغتين. وهكذا انتهى كل شيء على النحو الصحيح.

حرر وصول الأمريكيين والبريطانيين عام 2003 العراقيين من صدام، لكنه لم يحررهم من شكوكهم وأحزانهم ومخاوفهم. كان نصراً للأجانب. واستغرب المحتلون سبب الترحيب بهـم بخشونة وليس بامتنـان. كان التحرير، بشكل ما، مذلاً، وجلـب في السنتين اللاحقتين مزيـداً من الكوارث. في يـوم الانتخابات، لم تكن القوات الأجنبية تُـرى في أي مكان، وحين ذهب العراقيون للتصويت، كان ذلك أخيراً إنجازاً لهم.

بعـد يومين من الانتخابـات، عدت لرؤية ماجـد الساري، ووجدته مبتهجـاً. بعد سقوط النظام، مع كل النهب والعنف، كان خجلاً من بلده، لدرجة أنه لم يحضر أسرته إلى البصرة، وكان يفكر في العودة إلى السويد إذا كانت نتيجة الانتخابات تعني خسارته لوظيفته في وزارة الدفاع. أما الآن فقد صمم على البقاء: فقد علم أن العراقيين يستحقون أن يحارب لأجلهم. «أظهرت الانتخابات قوة الأفكار الدينية هنا. سأبقى وأحارب تلك الأفكار السيئة. فالحرب

تتغير من حرب ضد العنف والتفجيرات إلى نوع جديد، هو حرب الأفكار».

بعد بضعة أيام، بدأت الغبطة من الانتخابات تزول مع زوال الحبر عن السبابات. كسبت قائمة السيستاني نصف الأصوات في جميع أنحاء العراق، وربحت 70% في البصرة. أما قائمة علاوي فقد نالت 15% في أنحاء العراق و20% في البصرة. في انتخابات المحافظة، فاز الائتلاف الشيعي المحلي بثلث الأصوات، واحتل حزب الفضيلة الدرجة الثانية، واحتلت قائمة علاوي الدرجة الثالثة. أما ائتلاف الأحزاب الصغيرة التي جمعها جودت العبيدي، صاحب شركة الليموزين السابق من بورتلاند، الذي حضر ورشة العمل في الحلة، فلم يسجل حتى في النتائج الوطنية. جعل نجاح الأحزاب الدينية مؤيدي علاوي وغيره من المرشحين العلمانيين مذهولين، وعزا بعضهم النتيجة إلى إساءة استخدام اسم السيستاني وصورته. وقال بعض العراقيين: إن محمد رضا، ابن السيستاني والمتحدث باسمه، قد اضطرب عشية الانتخابات، وأمر الأئمة بالموافقة على القائمة 169 بشكل رسمي. (لكن مكتب السيستاني أنكر ذلك). كانت تلك مفاجأة غدير الخم. وفي الفرصة الأولى «لإعطاء أصواتهم» أطاع معظم الشيعة قادتهم الدينيين.

زرت مكتب الباشجي في بغداد؛ لأرى كيف سيمر العراق بهذا الحدث الخلافي، الذي أصبح فيه الخاسرون التاريخيون في البلاد رابحين، وأصبح فيه الرابحون خاسرين. كان هناك شعور بالتحول خارج العراق: فالدول العربية المجاورة للعراق كانت قلقة من ظهور الشبح الإيراني والتأثير الشيعي في الشرق الأوسط، مما يفسد النظام السني. قال لي الباشجي، الرجل ذو الأفكار الليبرالية: «آمل ألا تعود هناك سياسة سنية في العراق. لا أعتقد أنه يجب أن يكون هناك سياسة شيعية، أيضاً. لا نريد أن نكون كلبنان. أعتقد أن سيطرة الشيعة أمر مؤقت. فالغالبية الشيعية ستبتعد في النهاية عن الأحزاب الدينية. إنه ضلال. وسترى. أعتقد أن العراقيين سيعودون إلى جذورهم العلمانية عاجلاً غير آجل».

كان الباشجي مشغولاً بعقد اجتماعات مع السياسيين والقادة الدينيين من السنة؛ ليبحث فيما يمكن فعله لإدخالهم وناخبيهم في اللعبة السياسية. قال الباشجي ضاحكاً: «قالوا: إنهم متحمسون لتصحيح هذا الخطأ الذي ارتكبوه بعدم المشاركة في الانتخابات دون أن يعترفوا بذلك طبعاً»، كان الباشجي يعمل وسيطاً بين المجموعات المهمشة وبين

المراكـز الجديدة للقوة، محاولاً إيجاد صيغة يستطيع القادة السنة عبرها المشاركة في كتابة دستـور عراقـي جديد على الرغـم من افتقادهم للتمثيـل في المجموعة. وهذا مـن شأنه أن يكبح الطائفية الشيعية، ويقدم طريقة للسنة الذين تعبوا من القتال؛ ليشاركوا في السياسة. زاد التصويـت مـن الانقسامات الإثنيـة والدينية، وأبعد الأمريكيين أكـثر عن مركز الحياة السياسيـة في العراق. في اجتماع لشيـوخ العشائر في بغداد بعد عدة أسابيع من الانتخابات، قال عربي سني من كركوك: «ليس الأمريكيون هم المشكلة. نحن نعيش تحت احتلال الأكراد والشيعـة. وقد حـان الوقت لمحاربتهم». أصبحـت كركوك من جديد نقطـة الصفر للحرب الأهليـة المخيفة والمهـددة والمرجوة. وأعلن زعيـم عشيرة أخرى في الاجتمـاع أن: «الأكراد يطالبـون بكركوك. وبعد ذلك سيبدؤون بالمطالبـة ببغداد. إن صدام حسين هو الذي أعطى الأكراد أكثر مما يستحقون». وقال: إن العرب سيثورون قريباً: «آخر الدواء الكي».

لم يشـارك د. باهـر بطي في الانتخاب، فقـد كان حي الدورة الذي يعيش فيه في بغداد خطـراً جـدًا. لكن حـين التقيته بعد الانتخابـات كان لديه بعض الأخبار: فقـد كانت فكرته القديمـة عـن مركز جلجامش للتفكـير الإبداعي ستأخذ شكل عيـادة نفسية جديدة توشك أن تفتتـح، بتمويل عراقي أمريكي، قرب الملعب الأولمبي في نادي عدي الاجتماعي. وسيسمح مركـز الجنة الـذي يضم عشريـن سريراً للمرضـى الداخليين وخمسين مريضـاً خارجياً، للبطـي بتدريس التقنيـات المتطورة لعشرة من المختصين النفسيـين والعاملين الاجتماعيين من الموظفين لديه، وبتقديم رعاية جيدة لأمراض العقول العراقية.

بعـد نحو عامين، كان البطي لا يـزال يضمر شكوكاً بشأن الأمريكيـين. وقبل أن نفترق، سألني للمرة الخامسة أو العاشرة إن كان هناك خطة خلف الفوضى التي سمح لها المحتلون بالسيطـرة علـى بلاده. وقال: «أنا لست مذعوراً، لكن هذا مجـرد سؤال». فاتفقت معه على أنه سؤال، وقلت: إن الفوضى على حد علمي كانت أسوأ من جريمة، وإنها خطأ فاحش. لكن الأمريكيـين كانوا أمـراً واقعاً في العراق، وكان البطي يعول عليهـم لمنع الشيعة المتدينين من الحصول على كثير من السلطة، ولحماية المصالح الأمريكية التي تلاقت مع مصالحه.

قـال البطي: «إنهـا لعبة روليت روسية، نحـن نغادر كل صباح، ولا نعـرف إن كنا سنعود

للبيت. لقد اعتدنا هذه اللعبة؛ لذا فنحن نستمر فيها».

أدلت أسيل بصوتها في الانتخابات. مشت هي ووالداها ست ساعات عبر المدينة إلى الأدهمية، حيهم القديم، حيث تم تسجيل بطاقاتهم التموينية، وعادوا بعد ذلك. كانت أسيل ترتدي عباءة سوداء طويلة وحذاء رياضياً، ومشت الأسرة في شوارع الأدهمية بعد صدام وسط النظرات غير الودية من شباب المنطقة. كانت أسيل خائفة لكنها متحدية، وحين وصلوا أخيراً إلى مركزهم الانتخابي، منحت صوتها لقائمة السيستاني؛ لمجرد أنها كانت تضم أحمد الجلبي، الذي كانت تعول عليه للقضاء على البعثيين إلى الأبد.

وحين رأيتها بعد الانتخابات، كانت قد استبدلت بالعباءة بذلة زرقاء متألقة، تنورتها إلى الركبة وسترة ذات حشوة للكتفين، وكنزة كريم ذات قبة عالية، وجوارب، وحذاء ذا كعب عالٍ. كما أنها كانت تضع أحمر شفاه ومسكارا والكثير من الحلي. جلسنا معاً في حديقة فندق فلسطين، واستمتعنا بشمس الشتاء المعتدلة، وحلت ضفيرتها وتركت شعرها ينساب في الضوء الذهبي. كان هناك شيء مختلف في أسيل، وكأنها تخلصت من عبء ثقيل. كانت تعمل سكرتيرة في وزارة بالمنطقة الخضراء (لم تكن هناك متابعة، لمقابلتها مع كنعان مكية)، وقد عرض عليها رجل يعمل معها في المكتب الزواج. كان وسيماً لكنه ممل، فعرفت أنها لن تستطيع أن تحبه وأخبرته بذلك، لكنها قبلت أن تدعه يأتي مع أسرته لزيارة أسرتها. جلسوا في غرفة الجلوس في بيت أهلها الذي شيدوه حديثاً، وبينما كان أهلها وأهله يناقشون موضوع المهر، تخيلت أسيل الحياة مع هذا الرجل: حالما يتزوجان، سيخلف بكل وعوده لاحترام استقلالهما الروحي، ويبدأ بجعلها ربة بيت عراقية، فانهمرت الدموع من عينيها، وملأتها الفكرة بالخوف لدرجة أنها تخيلت أن الأمر سيكون أشبه بالعيش تحت حكم صدام من جديد. وللمرة الأولى من شهور، تذكرت بالضبط كيف شعرت. لم تستطع أن تدع ذلك يحدث. لم تقل شيئاً في ذلك اليوم، لكنها عرفت أنها سترفض العرض.

قالت أسيل، بينما كانت تخرج من الفندق لتودعني في الشارع: «أريد أن أسافر، عقلي لا يتناسب مع هذا المجتمع؛ فأنا أريد مزيداً من الحرية».

# خاتمة الكتاب

في الأيام الأولى من عام 2005، حزم درو إردمان أشياءه من مكتبه في مجلس الأمن القومي، وترك الخدمة في الحكومة، والتحق بزوجه وابنته الرضيعة في سانت لويس، حيث خطط للحصول على عمل في القطاع الخاص. كان إردمان يعمل حول موضوع العراق، في بغداد وواشنطن، منذ نحو ثلاثة أعوام. كان عمله صعباً ومتطلباً. كان يستطيع النوم ليلاً. لكنه مع ذلك كان يذهب إلى بيته، ولديه شعور بأنه لم يقدم ما يكفي. كان ثمن أرواح الناس عبئاً ثقيلاً. خسر أصدقاء من الأمريكيين والعراقيين، وكان يرى نفسه محظوظاً، لكن لو كان عازباً لبقي في العراق.

في سانت لويس، حاول إردمان، ألا يتابع الأخبار عن ذلك الجزء من العالم. وعلى الرغم من أنه لن يعود مؤرخاً محترفاً، فقد أراد أن يكون على مسافة كافية ليفكر في الحرب بشكل تاريخي، مما قد يستغرق سنوات. كانت الأسئلة الكبرى تنتظره وآخرين مثله، منها: هل سينجح الأمر؟ كيف كان يمكن فعل هذا بشكل أفضل؟ إذا لم يتم فعل هذا بالطريقة الصحيحة، فهل كان من الضروري القيام بذلك أصلاً؟، لكن إردمان لم يكن مستعداً بعد للإجابة عنها.

ومع ذلك، فقد قام بالفعل بقراءة كتاب -من الغلاف إلى الغلاف، أول مرة منذ مدة- في موضوع له صلة. كان ذلك الكتاب هو Bureaucracy Does Its Thing/ البيروقراطية تقوم بدورها، بقلم «Blowtorch» بوب كومر، الذي كان يدير برنامج التهدئة في فييتنام في عهد جونسون. كانت نسخ منه توزع في بغداد، وقال بعض الناس هناك: «إن كنت تريد أن تفهم ما يجري هنا؟ فاقرأ هذا التقرير». حطت نسخة من الكتاب على مكتبه في واشنطن. كان إردمان يرفض في السابق تشبيه الوضع بفييتنام، ولا يزال: فالعراق من الناحية الإستراتيجية مركزي أكثر جدًا، كما أن طبيعة التمرد مختلفة، وفرص النجاح في العراق أكبر: الحكومة الأمريكية المستمرة، والجهود الجارية لجعل الفرعين المدني والعسكري يعملان بتناغم،

والعوائـق المؤسساتية التي جعلت الأمـر صعباً جدًا، والجهود المتعـثرة للتكيف بشكل تخيلي مـع أنواع جديدة من الحرب، والصعوبة التنظيمية التامة لإنجاز شيء على مقياس العراق. تنـاول إردمـان هذا كله في أطروحته، وحين أعاده كتاب كومـر إليه، اكتشف أنه كان قد تنبأ بجـزء كبير من تجربته. قال إردمان: «هناك أشياء كثيرة حول العراق تناسب نمط الأشياء التي كنت أفكر فيها وأعمل عليها سابقاً». فمثلاً، في عام 1917، بينما كانت القوة الأمريكية الاستطلاعيـة تستعد للإبحـار إلى أوروبة، بحث الجنرال جون بيرشينغ حوله عن خطة فلم يجـد: «لذا لم يكن الموضوع مفاجئاً لي، والآن فقط حين أصبح لدي قليل من الوقت أستطيع أن أجمع الأشياء مع بعضها في لوحة فسيفسائية، وأرى بعض الاستمراريات بوضوح أكبر».

كانـت أطروحتـه قد ركزت علـى مراوغة النصـر. فهزيمة الجيش الياباني لم تأتِ مع الاستسـلام في أغسطس/ آب 1945 علـى مـتن السفينـة الحربيـة USS Missouri، وإنما بعـد ست سنوات من ذلك، مع نهايـة الاحتلال الأمريكي وولادة اليابـان الديمقراطية؛ لأن النصر عملية وليس حدثاً، وله أهداف سياسية جوهرية، وليس أهدافاً عسكرية، والنصر في العراق، بما في ذلك تغيير السياسة العراقية، ليس في متناول السلطة الأمريكية وحدها. قال إردمان: «بشكل أساسي، إنه دوماً يتعلق بالعراقيين»، فالأهداف الرئيسة لا يمكن أن يحققها إلا العراقيون. قد تكون هذه الأهداف أهدافاً أمريكية بشكل غريب. نحن نستطيع المساعدة. لكننـا في وضـع لا يمكن فيه تحقيـق النصر إلا عبر جهود الآخرين. إنـه وضع متناقض. قد تكـون لدينـا القوة، لكن بسبب طبيعـة أهدافنا تحديداً، لا نستطيع استخـدام قوتنا لفرض نتيجة محددة. إن مصيرنا مرتبط بالآخرين ارتباطاً أساسياً».

في الأسبـوع ذاتـه من شهر ينايـر/ كانون الثاني الـذي غادر فيه إردمـان واشنطن، تم استدعـاء كولـن باول إلى البيت الأبيض لمحادثة وداعية بينـه وبين الرئيس. كان باول طوال الوقـت المعارض المطيـع الهادئ بشأن العـراق، وكان قلقاً بشأن ضـرر التحالفات، ومشككاً (ولكـن ليس بالقدر الـكافي) بادعـاءات الإدارة المحمومـة أكثر حول الأسلحـة والإرهاب، وواقعياً بشأن صعوبات ما بعد الحرب. لكن سمعته تشوهت بشكل سيئ، حين ثبت أن خطابه للأمم المتحدة قبل الحرب حول الأسلحة العراقية زائف في معظمه. وبالرغم من أن العراق

أصبح أكثر فأكثر مسؤولية بالنسبة لوزارته، إلا أن باول قد خسر كل معركة تم فيها اتخاذ قرارات حاسمة. كانت مدة خدمته وزيراً للخارجية خيبة أمل كبيرة. في الأشهر الأخيرة لباول في وزارة الخارجية، نقل أحد مساعديه عنه إجابة تشرشل لشخص علق على جحود الشعب البريطاني لتصويتهم ضده حتى قبل الفوز بالحرب العالمية الثانية، قال تشرشل: «لا تبحث عن الامتنان ولا تتوقعه، لكن احصل على الراحة التي تستطيع الحصول عليها من اعتقادك بأن جهودك بناءة للهدف الذي تريد». وكما يعتقد المساعد، فإن باول كان يخدم هدفاً بناءً. ربما كان هذا الهدف أقل مستوى مما التزم به باول. والآن، أسرع مما أراد، تُستبدل بهكوندوليزا رايس، الناجية البيروقراطية الفطنة.

بعد بضع دقائق صعبة في المكتب البيضاوي، أدرك باول أن بوش لم يكن لديه فكرة عما كان يفعله وزير خارجيته هناك. تم استدعاء رئيس أركان البيت الأبيض، أندرو كارد، لكنه كان يجهل الموضوع أيضاً. من الذي دعا إلى الاجتماع؟ بدأ يظهر أن من الممكن تماماً أن نائب الرئيس الشبح قد رتب لإذلال زميله القديم وعدوه الحالي عند مغادرته. سحب باول نفسه، وأعلم الرئيس أنه لم يأتِ لأجل اجتماعهما الأسبوعي، وإنما ليودعه. وحين وجد أنه وحده مع الرئيس ربما للمرة الأخيرة، قرر باول أن يقول ما في ذهنه دون قيد. فناقشه بأن وزارة الدفاع لديها سلطة أكثر من اللازم في تشكيل السياسة الخارجية، وحين طلب منه بوش مثالاً على ذلك، لم يذكر باول رامسفيلد، الوزير الذي انتصر عليه بشكل بيروقراطي، ولم يذكر وولفوفيتز، الرجل الأول في الشأن العراقي، وإنما ذكر المسؤول الثالث في الوزارة، دوغلاس فيث، الذي سماه باول العضو الحامل لبطاقة حزب الليكود. وللتمهيد لكلامه، انتقل باول إلى المفاوضات حول كورية الشمالية، ثم عاد إلى الشأن العراقي: فإذا لم يتحسن الوضع هناك بحلول الأول من إبريل/ نيسان بشكل كبير، فسيكون الرئيس بحاجة إلى إستراتيجية جديدة وأناس جدد لتنفيذها. بدا أن بوش عاد لرشده: لم يكلمه أحد بهذه الطريقة في المكتب البيضاوي. لكن لأن تلك كانت المرة الأخيرة، فقد تجاهل باول كل مثال للاستياء، وتابع إلى أن قال ما كان عليه أن يقوله، وما كان عليه أن يقوله منذ وقت طويل ربما.

في الأسابيع اللاحقة بدا أن باول كان مخطئاً بشأن العراق. فقد كانت الانتخابات هي أكثر حدث حاسم منذ الإطاحة بالنظام، وظهر أن إصرار بوش على عدم تأجيلها كان أحد

أفضل قراراتـه. أعطى التصويت العراقيين ثقة جديدة بأنفسهم وحتى بمؤسساتهم، إلى حد مـا. في صحـوة الانتخابات، بدا أن التمرد فقد قوته. لكن الحكومـة العراقية الأولى المنتخبة، والرئيـس الكـردي الأول في تاريـخ البلاد، واجها مـع ذلك أكثر المهام الرهيبـة: ألا وهي بناء القوات الأمنية، بحيث تستطيع الديمقراطية الهشة الدفاع عن نفسها، واكتساب ثقة الشعب، وكتابـة دستور، وفرز أكثر المشـكلات صعوبة، كمكان البعثيين السابقين في الحكومة والجيش، ودور الإسلام في المجتمع والقانون، ووضع كركوك. كان درو إردمان يحب أن يقول: إن هذا كله يتعلق بقدرة القادة الجدد للعراق على رسم الخطوط على الخريطة.

خارج العراق، كانت هناك ريح تاريخية أخرى تبدأ بالهبوب عبر الشرق الأوسط. تجمع اللبنانيـون بأعـداد كبيرة في بيروت؛ للمطالبـة بانسحاب القوات السوريـة، فوافق الرئيس المصـري حسني مبارك بـتردد على انتخاب رئاسي متنازع عليه، فـازدادت جرأة المعارضة في سوريـة، والمفاوضـات الإسرائيلية الفلسطينية المتوقفة عـادت للحركة للمرة الألف. كان مبلـغ الاعتماد الذي ذهـب للعراق، والمبلغ الذي ذهـب للحركات الداخلية لـكل بلد، والمبلغ المخصص للحظ يعتمـد على من تطلب منـه والوضع الذي يريد تسويغـه. كان المحافظون الجدد في الإدارة الأمريكية قد تعلموا من عام 2003 لم يكرروا الإعلان عن النصر إلا سراً، حتى حين عاد العنف في العراق أقوى من السابق.

عـاد كاليف سيب، الضابـط المتقاعد في القوات الخاصة الـذي كان قد درب الجنود في السلفـادور، إلى العـراق في نوفمـبر/ تشرين الثـاني 2004 بعد اجتماع مـع الجنرال جورج كاسـي الذي خلـف سانشير في القيـادة، وطلب خبـيراً في مكافحة التمـرد، فقوبل بصمت رهيـب: لم يكـن هناك خبير في مكافحـة التمرد. وفي بغداد مجدداً، وجـد سيب أن الجيش الأمريكـي لا يملـك خطـة فاعلة تعالـج التمرد بطريقة جـادة. ساعد مع فريـق من ضباط أمريكيين وبريطانيين وغيرهم في إعداد إستراتيجية جديدة تركز أول مرة على قوات الأمن العراقية، مع آلاف المستشارين الأمريكيين الذين يعملون بشكل مكثف مع الكتائب الجديدة. وفي فبرايـر/ شبـاط 2005، نقل عن مسؤول لم يكشف عن اسمـه قوله: «تتضح مما يتعامل معـه الآن القـادة رفيعو المستوى الحاجة إلى خطة لحملة مكافحة الإرهاب». بعد نحو سنتين مـن سقوط النظام، قبـل الجيش أخيراً حقيقة أن حرب العـراق لم تنتهِ. لكن سيب لم يكن

يتوهم بنصر سهل. «ستكون هذه حرباً طويلة. سيُقتل الأمريكيون في شوارع بغداد بعد خمس سنوات من الآن».

ظل معظم مهندسي الحرب في السلطة: بوش وتشيني، ورامسفيلد ورايس. كانوا نادراً ما يتحدثون عن العراق الآن لدرجة أن المرء كان يمكن أن يظن أن الأمريكيين لم يعودوا يموتون في العراق، وأن المهمة قد أُنجزت أخيراً. في منتصف عام 2005، ومع دخول العراق من جديد في العنف الذي كان يقتل عشرات من الناس أو أعداداً كبيرة كل يوم، كسر تشيني صمته ليعلن أن التمرد كان في «النزع الأخير». وكان قد قال الشيء ذاته بعد أسر صدام، قبل سنة ونصف السنة. كانت سياسة الإدارة بشأن العراق عائمة تماماً، ووصل الأمر إلى قول هذه الأشياء، أملاً في تحقيقها.

أعلن البنتاغون أن دوغلاس فيث سيغادر؛ ليقضي مزيداً من الوقت مع أسرته. وبعد رحيل دوغلاس فيث بوقت قصير، وصف نفسه لصحافي بأنه أحد أتباع إدموند بروك، فيلسوف الثبات والتقاليد البريطاني المحافظ من القرن الثامن عشر. وقال: إن إدارة بوش لم ترغب قط بفرض القيم الأمريكية في العراق الذي كانت فيه «الديمقراطية الشيعية» بديلاً مقبولاً بشكل ممتاز. من الناحية الفلسفية، بدا ذلك عذراً، حول الفوضى والعنف الذي يحمل فيث المسؤولية الكبرى فيه إلى مثال للحكمة وضبط النفس من قبل أمريكة في السماح للعراقيين بالقيام بالأمور بطريقتهم. لكن كان من المحتمل أيضاً أن فيث وغيره في الإدارة، لم يكن لديهم نية من البداية بالقيام بأي شيء أكثر من إزالة المستبد والرحيل بعد ذلك.

أصبح بول وولفوفيتز رئيس المصرف «البنك» الدولي، وهو المنصب الذي لجأ إليه روبرت ماكنمارا بعد مغادرته للبنتاغون في ذروة حرب فييتنام. لكن فييتنام كانت حرب ليبراليين، كما أشارت ليسلي جيلب. أخذ وولفوفيتز المنصب بصفة تبرئة له وليس تكفيراً عن ذنبه. قال مسؤول سابق رفيع المستوى: «قد يكون بول أكثر الناس في هذه الإدارة الذين كانوا يجدون صعوبة في النوم ليلاً؛ لأن لديه ضميراً. لست متأكداً إن كان الآخرون لهم ضمير». وحين سألته مَن أيضاً كان يجد صعوبة في النوم؟ قال المسؤول السابق: «هذا سؤال جيد»، ثم أعاد ما قال. لكن مهما كان وولفوفيتز يقوم به من البحث عن الروح، فإنه يؤمن دوماً بضرورة الحرب، وقد يثبت أنه محق بعد خمسين عاماً «وإذا أريقت بعض الدماء،

ومـات بعضـ الناس فهذا جزء من الحيـاة». هل كان وولفوفيتز يشعـر بإراقة الدماء؟ قال المسـؤول السابـق: «أظن ذلك على أي حال، أود أن أظن ذلك. لا أظن أنه سيعجبني إن كان لا يشعر بذلك».

لما كان مصير أمريكة مرتبطاً بمصير العراق الآن، فقد تمر سنوات قبل أن يمكن أخيراً الحكم على حكمة الحرب. حين سئل الرجل الثاني في ماو، شاو إن لاي، عام 1972 عن رأيه في أثـر الثـورة الفرنسية؟ أجاب: «إن من المبكر معرفة ذلك». أخذ بول وولفوفيتز وغيره من كبار منظري الحرب بالنظرة الطويلة للتاريخ أيضاً؛ وإلا لما كان هناك غزو أمريكي للعراق، أو على الأقل، ليس بهذه السرعة. أما المسؤولون البراغماتيون الذين سألوا أسئلة صعبة عن الحلفاء والدليل والتوقيت والخطط، ولا سيما أولئك الذين تم تغييرهم في المعركة، مثل باول فلـم يكـن من المحتمل أن يخاطروا من أجل فكرة، وإن كانـت مهمة، كتغيير الشرق الأوسط مـن حاضنـة للقتل الجماعـي إلى مجموعة من الـدول العادية شبـه الديمقراطية. لم يكن هناك تهديد فوري من العراق، لم يكن هناك خطر محدق. كان يمكن للحرب أن تنتظر.

من له حق أن يقرر إن كان الأمر يستحق أو لا؟ يسأل كريس فروشيسر، الذي فقد الكثير في العراق، نفسه هذا السؤال كل يوم، لكنه لم يصل إلى إجابة أقرب من الفخر بخدمة ابنه والحـزن لموته. لم يكـن ليختار أن يتخلى عن كيرت لأجل الديمقراطيـة في الشرق الأوسط، وهـو الآن يريـد أن يكون موت كيرت جـزءاً من خير تاريخي. ومع ذلك، علـى فروشيسر أن ينسحـب دومـاً، كما قال، كلما أصبحت الرؤية كبيرة جدًا، واللغة مجردة جدًا، وإلا فسيفقد الشيء الأكثر أهمية: حياة واحدة، وموتاً واحداً.

يبقى الوجود اليومي في العراق كابوساً. في الديمقراطية الأحدث في العالم، معظم الناس ليسـوا أحـراراً في التعبير عما يـدور بأذهانهـم، أو في الانتماء إلى مجموعـة محددة، أو في ارتداء ما يريدون، أو حتى في المشي في الشوارع دون المخاطرة بحياتهم. في أسوأ أيام العنف، قـال بعضـ العراقيين: إنهم كانوا بحـال أفضل في عهد صـدام، وإن أمريكة كان يجب عليها ألا تطيـح بـه إذا كانت النتيجة ستكون الكثـير من إراقة الدم. على الرغـم من أن قليلاً من العراقيـين الذيـن عرفتهم قالوا ذلك، ولكونهـم خبراء في المعاناة، فهم أقـدر من الناس في

القاهـرة أو روما أو لبنان أو واشنطن على مقارنة الثمـن بالمكسب. حين قلت لأسيل: إنه بعد أن اتضـح عدم وجـود الأسلحة شعر بعضـ الأمريكيين بالخيانة من قبـل إدارة بوش وأحمد الجلبي، صاحت: «نحن أهم من الصواريخ!» فما قدمته الحرب لأمثالها من الناس هو الأمل.

جعلـت النظـرة الطويلـة للتاريخ الحـرب ممكنـة، ومكلفة. انشغـل درو إردمـان خارج الحكومـة بالصفـة المؤسساتية لأخطاء الإدارة، لكنه في بغـداد في صيف عام 2003 كان قد قـال: إن النجاح أو الإخفـاق يعتمد بشكل كبير على تقدير الأفراد. وقـد وصلت إلى اعتقاد بأن أصحاب المناصب الذين يحملون المسؤولية الأكبر عن العراق قد أظهروا لا مبالاة بحياة البشـر وصلت إلى الإهمال الإجرامي. ولأنهم كانوا مقيدين بأفكار مجردة، ومقتنعين بأنهم علـى حـق، وعاجزين عن نقد الذات، وغير مهتمين بالمحاسبة، فقـد حولوا تعهداً صعباً إلى تعهـد قاتل بـلا مسوغ. وحين سـارت الأمور بشكل خاطـئ، وجدوا أشخاصـاً آخرين يلقون عليهم اللوم. كان من الممكن دائماً الفوز في حرب العراق، ومازال ذلك ممكناً. ولهذا السبب تحديداً، فإن تهور مؤلفيها يصعب أن يغتفر.

في أحـد أيـام شهر يناير/ كانـون الثاني، التقيت ثلاثـة رجال عراقيين كانـوا يتناولون الغـداء في ردهـة فندق فور سيزنز في عمان: شيعي وسني وكـردي. كانوا في الأردن في رحلة عمل، لكنهم كانوا يعيشون في بغداد أيام حكم صدام. كانوا يرتدون سترات مع ربطات عنق، ويتحلـون بالأسلوب اللطيف للجيل العراقي الأقدم، وقد دعـوني إلى مائدتهم. كان الكردي وهو خبير مالي واسمه محمود، والسني وهو مهندس معماري واسمه هشام، صديقين لوالد كنعـان مكيـة. وقد ذكر هشام وهو أكبر الثلاثة سناً مـع ابتسامة خفيفة أنه قد ورد ذكره في كتـاب مكية النُصب. كان المهندس المستشار في إنشاء نصب تذكاري للعراقيين الذين قضوا في الحرب مع إيران، نُصب الشهداء، وكتب ثناءً متملقاً «للرئيس القائد» عند إزاحة الستار في عام 1983، الذي اقتبسه مكية بكامله.

قـال محمود: «كان كنعان مكية مثالياً جدًا وبعيداً عـن الواقع. لقد أتى إلى بغداد، ورأى أن كل شيء كان مختلفاً».

قال هشام: «كل من كان يعيش في الخارج كان يظن أن العراق مختلف.

قال محمود: «كان هنالك فرق واضح، من أول يوم، بين طريقة تفكير من عاشوا في الداخل وطريقة تفكير المغتربين، يمكنك رؤية ذلك. الآتون من الخارج، التحرريون المثاليون، أرادوا أن يتقلد السلطة أولئك المعتنقون لفكر جيفرسون. كان ذلك شيئاً جيداً. ولكن على الأرض، يوجد أناس مازالوا يعيشون في العصور الوسطى، العشائر والمحرومون والمجرمون والمتدينون. يجب أن يتم استرضاء كل هؤلاء أو أن يفوزوا. لا يمكن استبعادهم ببساطة. نحن نعرف هؤلاء الناس، كنا نعيش بينهم».

في عهد صدام، كلما سافر هشام من بغداد إلى لندن، كان المغتربون هناك يفترضون أنه عميل للنظام. هشام الذي سُجن وحكم عليه بالإعدام بعد أن بدأت كتل البلاط الإسمنتية لنصب الشهداء تلتف من الأطراف بشكل غير متوقع، كان يقول لهم: «بعد أن تقوموا بثورتكم وتتخلصوا من صدام، سيكون هناك مليون بعثي. ماذا ستفعلون معهم؟ هل هم جميعاً أعداء، يجب وضعهم جانباً؟» لم تكن لدى المغتربين إجابات، وإلا لكانت لديهم كلمة واحدة هي اجتثاث البعث. قال هشام: «لم يكونوا مستعدين لما يواجهون الآن، لم يفكروا في حل لمليون بعثي». وأضاف أن كنعان مكية قد أعطي بعد سقوط النظام دوراً أكبر من اللازم في السياسة العراقية.

قال محمود: «أنا لا أوافقك الرأي، نحن بحاجة إليه في العراق. نحن بحاجة إلى أفكاره».

قال هشام: «أنا أتفق معك، لكن هذا الموقف يجب ألا يحكم البلاد. أنا بحاجة إلى شخص كهذا لأناقشه، لأسمع أفكاره، لأتعلم منه. لكنني لا أستطيع أن أقبله مشرعاً».

قال محمود: «حين تُقطع رؤوس الناس، ويكون هناك كثير من القسوة في البلاد، تكون سعيداً لوجود شخص مثل كنعان مكية؛ لأنه مثالي جدًا. أفكاره جيدة جدًا، فنحن بحاجة إليه، ولو كان حالماً».

بعد شهرين، في مارس/ آذار، ذهبت لرؤية مكية في بيته المكسو بالألواح الخشبية في شارع جانبي في كامبريدج. لم يكن هذا هو المكان الذي كان لنا فيه كثير من المحادثات قبل

الحرب: فقد اشترى هذا البيت بعد طلاقه وملأه بالكتب. حين وصلت، كان العمال يضعون الطبقة الأخيرة من الطلاء على الخشب قبل صقل الأرضيات. لم يكن مكية وحده في بيته الجديد. كانت معه ولادة الصراف. قبل ستة أسابيع، كانت ولادة قد حزمت حقيبتين صغيرتين، وتركت زوجها وكل شيء آخر، لتأتي إلى أمريكة وتلتحق بمكية. كان ذلك تصرفاً غريباً فيما يتعلق بامرأة عراقية، لم يستطع أصدقاؤها أن يفهموا لماذا لم تفعل الشيء العادي، بأن تبقي علاقتها سراً وتستمر في العيش على أنها امرأة محترمة في المجتمع العراقي. ولأن الإشاعات تسري الآن في أنحاء بغداد، فقد رفض ابناها الأكبر سناً أن يتكلما معها، وكانت ولادة بائسة. ومع ذلك فقد اتخذت قراراً، وكانت مرتاحة لهذا القرار.

قالت ولادة: «لقد تعبت من الكذب، لم أعد أستطيع التظاهر». كان مكية لا يزال يسافر إلى بغداد ويعود، لكنها كانت تريده أن يتوقف عن الذهاب، لأجلها ولأجله. قالت ولادة: «إنهم منافقون. إنهم يستغلونه، إنهم لا يستحقون شخصاً ساذجاً وطيباً مثل كنعان. أنا أعرف الثقافة العربية، أما هو فلا يعرفها».

ذهبنا لتناول العشاء. كان الثلج يهطل محولاً جوانب الطرقات إلى برك من الثلوج الذائبة. عدت بالذاكرة إلى الليلة المثلجة في كامبريدج عام 2002 حين أمضيت أنا ومكية ساعات ونحن نناقش مستقبل العراق بعد صدام، حين كان كل شيء لا يزال مُنتظراً. كان حالماً، وكان لأفكاره في تلك الليلة نقاء الأفكار غير المدروسة/ غير المجربة، التي لا أزال بعد أكثر من عامين أربطها بالثلج الأبيض خارج نافذته. حدث الكثير منذ ذلك الوقت، بحيث لا يمكن أن يبقى شيء نقي. سبق أن رأيت مكية مرات كثيرة، في كامبريدج ونيويورك وواشنطن ولندن وبغداد، لكن لم أستطع أن أصنف مشاعري. كان صديقي وكنت أحبه. كان قد كرس حياته لفكرة عن العراق كنت أحملها. وقد ربط تلك الفكرة بآلية الحرب، وقد قُتل كثير من الناس. لا تبقى أي فكرة سليمة، بعد أن يلطخها التاريخ بالدماء، والتاريخ لم يتبع مخطط مكية. في بعض الأوقات، كانت رؤيته للعراق مخالفة جدًا لما رأيت وسمعت هناك، لدرجة أن الحلم بدا غير مسؤول وخطير. أردت أن أعرف ما فعلته به السنتان الماضيتان.

بـدا أن مكيـة يخمن أفكاري. بينما كنـا نتناول حساء العدس، فذكـر صديقه مصطفى الكاظمـي المغـترب الـذي التقيته في لنـدن وعـاد إلى بغـداد، وكان يعمـل الآن في مؤسسة مكيـة التذكاريـة. لم يكـن مصطفى مثقفـاً، لكنه كان واحـداً من المغتربين الذيـن أظهروا حكمـة حقيقية حـين كان يناقش الحقائق علـى أرض العراق. كان الأكـثر أهمية هو العامل البشـري المحـير. قال مكية، وشعرت أنه كان يتكلم عن نفسه: «لم يكن الاختبار الأكبر الذي واجهـه المغتربون العراقيـون العائدون اختباراً للأفكار كانت جميـع الأفكار أساساً موجودة وصحيحـة. نعم الأفكار مهمة. لكن الامتحان كان امتحانـاً للشخصية. وهنا أخفقوا جميعاً في التطبيـق العملي». كانت البرامج والتصريحات تهيمن على عالم السياسة في المهجر، بما فيها كثير مما كتب عنه مكية أو وقع عليه. «لكن في الأداء الفعلي لهذه السياسة منذ إبريل/ نيسان 2003، أصبحت الشخصية الإنسانية فجأة، والميزات الشخصية الفردية، مهمة جدًا. لم يسقـط الناس علـى وجوههم أو يلمعوا بسبـب أفكارهم العظيمة، وإنمـا لميزات محددة في الشخصيـة اكتسبت فجـأة أهمية كبـيرة في الممارسة الفعلية للسياسـة في هذه الأوقات الصاخبة جدًا».

قـال مكية: إن الأفكار مثل اجتثاث البعث وحل الجيش لم تكن خاطئة. وهو لا يزال يؤمن بهـا. لكنه قد أمضى حتـى الآن نحو سنتين في العراق، وكان العاملون في مؤسسة الذكرى في بيته في بغداد يفحصون شهرياً بين خمسين ومئة ألف وثيقة من وثائق البعث. أظهرت هاتان السنتـان وتلك الوثائق لمكية تعقيد العراق سـواء في عهد صدام أو حتى اليوم. كانت الأفكار بحاجة إلى هذه المعرفة البشرية العميقة. كان اليوم غامضاً في الغالب. وكان الناس يقومون بأشيـاء لأسباب أكثر تعقيداً، وكانت السياسة أضيق من أن تفسر تصرفاتهم وتحكم عليهم جميعاً، فقد كان الفهم الحقيقي يتطلب من مكية حباً حقيقياً، وأدباً.

أدرك أنـه غير مناسب للسياسة، وانسحب من العراق، وابتعد عن صديقه القديم أحمد الجلبـي. كان مكيـة يضع طاقته في مؤسسة الذكرى التي أجرتهـا مدينة بغداد مساحة كيلو متر مربع في وسطها، حيث كان السيفان المتصالبان وأرض الاستعراض تعرض رؤية صدام بكل ما فيها من وحشية. أراد مكية في الواقع أن يقلب معنى النصب رأساً على عقب، جاعلاً منه تذكاراً لضحايا صدام.

بينمـا كنـا نتحدث وضعت ولادة رأسها على كتف مكية. كانـت منهكة، وعدنا إلى بيتهما مشيـاً علـى الأقدام تحت الثلج. شغل عمـال التمديدات الصحية المـاء في الحمام الجديد، وأصر مكية بحماسه الذي يميزه أن نشاهده أنا وولادة بينما يفتح الدُوش. كان رأس الدُوش موضوعـاً في الزاوية، وحـين أتت المياه، تناثـرت في نصف مساحة الحمـام. ضحكت ولادة قائلة: «هذا هو كنعان».

ذهبـت ولادة لقضـاء قيلولة، وأعـد مكية قهوة تركيـة. بعد وقت قصـير، كان سيذهب لإحضـار ابنتـه؛ لتقضي معه عطلـة نهاية الأسبـوع. وبينما كنا نقف في المطبـخ، كان يفكر في مشروعـه حـول نصب السيفين المتصالبين. كان يأمل أن يـزور جيل جديد من العراقيين التـذكار بعـد أن ينتهي ويعلموا ما تم فعله في بلادهم. لم يرد منهم أن يشيروا بإصبع اللوم، ولكـن أن يستخلصوا درساً بشرياً ويقولوا: «يا إلهي، ماذا حدث هنا؟ أي شخص في ظروف معينـة يمكـن أن يفعل أشياء رهيبـة للآخرين. يجب ألا نسمح لتلـك الظروف أن تحدث في بلادنا مجدداً». يمكن أن تولد شخصية عراقية جديدة من هذه الاعترافات ومراقبة الذات.

كانت القهوة التركية تغلي وتفور على الموقد.

قال مكية: «أعتقد أن أحمد هو الذي قال عني مـرة: إنني أجسد انتصـار الأمل على التجربة».

# كلمة ختامية

في شهر يناير/ كانون الثاني 2006، مع اقتراب نهاية السنة الثالثة لحرب العراق، وصلتُ إلى بغداد في عيد الأضحى، العيد الذي يأتي في أعقاب الحج إلى بيت الله الحرام في مكة. كانت شوارع المدينة فارغة، إلا من الصفوف الطويلة من السيارات التي تنتظر أمام محطات الوقود، فقد كانت بغداد تعاني أزمة وقود، سببها الأساسي الهجمات على محطات التكرير وأنابيب النفط، مما أدى بدوره إلى زيادة عجز الكهرباء الذي أصبح يقطع التيار الكهربائي الآن ثماني عشرة أو عشرين ساعة يومياً في العاصمة. في الليل، كانت أحياء كاملة يعمها الظلام. كانت الدوريات الأمريكية أقل مما اعتدت مشاهدته، وكان هناك عدد أكبر من رجال الشرطة والجنود العراقيين عند نقاط التفتيش. كان فندق فلسطين الذي كان من الصعب على الصحافيين والمتعهدين في السنة الأولى بعد سقوط النظام أن يجدوا غرفة فيه، أصبح فارغاً إلا أربعة من طوابقه الثمانية عشر. ففي بداية شهر ديسمبر/ كانون الأول كاد انتحاري يقود شاحنة إسمنت محملة بالمتفجرات يُسقط البرج، وبعد شهر كانت نوافذ مبنى الإدارة، المقصوفة مغطاة بالنايلون، والأسلاك تتدلى من السقف. كان معظم العاملين في الصحافة الأجنبية قد عادوا إلى بلادهم. جلس المدير وحيداً إلى مكتبه في مبنى الإدارة وكأنه يتوقع عودة الزبائن في أي لحظة. وفي الخارج، كانت هناك لوحة تعرض أسعار المشروبات الكحولية. مر بي صبي في نحو العاشرة من عمره، وسألني بلهجة جنوبية عدوانية قد تكون آخر إسهام لجندي أمريكي في تغيير العراق: «هل تبحث عن شيء؟».

شعرت، وكأن الأمريكيين قد تخلوا عن العراق لمديري الفنادق الذين ليس لديهم عمل، ولأطفال الشوارع، ورجال الميليشيات المسلحة. يكاد المرء يتخيل أنه بعد ثلاث سنوات من الاحتلال، وبعد عشرات المليارات من الدولارات وآلاف الأرواح والجهود المحمومة التي بذلها الأجانب والعراقيون لانتشال البلاد من تاريخها، انتهى فاصل الرؤى الكبرى، وها هو العراق يعود إلى طبيعته الطائفية والشريرة.

الحقيقة أن الأمريكيين لا يزالون هنا، معظمهم مختبئ الآن بعيداً في مجمعات عالية الأسوار أو في الصحراء في القواعد النائية التي تشبه المدن الصغيرة. كما أن العراق لم يُعد شبيهاً بما كان. لقد كان يدخل حقبة لم يعرفها العراقيون، وكانوا يخافونها جدًا. كان قادتهم المنتخبون في ديسمبر/ كانون الأول 2005 في انتخابات عمت البلاد ووصلت إلى إجماع المجموعات الثلاث الأساسية في البلاد، يحاولون تشكيل أول حكومة تمثيلية في تاريخ البلاد، في تلك الأثناء كان العراقيون في كل شارع، وفي كل قرية يقتلون مواطنيهم بأعداد رهيبة.

كان التمرد السني دموياً بلا هوادة كما كان. وكانت بعض الميليشيات الشيعية الآن، المتخفية بمظهر قوات الأمن الرسمية التي اخترقوها، يشنون غارات على الأحياء السنية ويجمعون الشباب السنة الذين يختفون في سجون سرية أو يظهرون مقيدين، معصوبي العيون، وأمواتاً في الشارع أو في قبور سطحية، وقد أحرقت جثثهم، وملئت بالثقوب، وشوهت، وأطلق عليها النار في الرؤوس. بعد سنوات من التفجيرات الانتحارية والقتل الجماعي للمدنيين الشيعة على يد المتمردين السنة، بدأ رجال الميليشيات الشيعية بتجاهل مشورة آية الله السيستاني بضبط النفس، وكانوا ينتقمون، ناشرين الخوف بشكل واسع بين السنة أول مرة. وفي دورة الانتقام، كان الشيعة يُطردون من الأحياء ذات الغالبية السنية في غرب بغداد والمدن المختلطة المحيطة بالعاصمة، بينما يقف جيرانهم الذين قضوا معهم شطراً طويلاً من حياتهم دون أن يقولوا شيئاً. كانت آلاف العائلات المشردة تتجمع في المخيمات والملاجئ حول بغداد، حتى وصل الأمر إلى حملة للتطهير العرقي في حرب أهلية ذات درجة منخفضة.

كان العراقيون يتجنبون دوماً عبارة «حرب أهلية» كأن مجرد النطق بها قد ينشر روحاً خبيثة في الجو. وكانوا يصرون أن الهويات الإثنية والطائفية أُحضرت إلى العراق بعد الغزو على يد الأمريكيين وحلفائهم المغتربين. وكان العراقيون سابقاً يعيشون معاً، في عائلات مختلطة وأحياء مختلطة، طوال عقود وقرون. وإشعال حرب أهلية يعني تحويل أسرة واحدة أو زوجين إلى أعداء. كانوا يقولون: إن هذا لا يمكن أن يحدث هنا، بمعنى: «لا نريد أن يحدث هذا هنا»، ولم يكن الموضوع موضع ترحاب لدرجة أن حتى ذكر كلمة «سني» و«شيعي»

كانت تعد قلة أدب. لكن بعد ثلاث سنوات من السياسة والعنف الممتد على طول الخطوط الطائفية أصبحت هذه الكلمات تستعمل بشكل مفتوح، مع خوف وكراهية.

أصبح حي الدورة حي الطبقة الوسطى من السنة والشيعة والمسيحيين في جنوب بغداد، نقطة الصفر للعنف الطائفي. بدأ ذلك بقتل الحلاقين، كما أخبرني رجل أعمال من الدورة: قرر المتطرفون السنة أن حلق اللحى ضد الإسلام، ووسعوا المنع ليشمل قصات الشعر الغربية. قال رجل الأعمال: «بعد الحلاقين، انتقلوا إلى وكلاء العقارات»، فقد صدرت فتوى بأنه لم يكن هناك بيع أو شراء للعقارات على زمن النبي ﷺ. ثم صار بائعو الثلج يُقتلون في الشوارع؛ لأن الثلج لم يكن يباع في القرن السابع. ثم استهدفوا أصحاب محال البقالة، وأصحاب محال الصرافة، وأصحاب محال الثياب. قال رجل الأعمال: «في ذلك الوقت، كانوا يعطون أسباباً، لكن بعد ذلك تطورت الأمور وأصبحوا يقتلون دون سبب»، كل يوم في وسط المنطقة، حول السوق الآشورية، كانت تُوزع شفهياً قائمة بأسماء الدفعة اللاحقة من الضحايا المقرر قتلهم -وهم في الغالب من التجار ودائماً من الشيعة- وأثناء أيام، كان أولئك الذين لا يأخذون احتياطات يُقتلون رمياً بالرصاص في وضح النهار على يد رجال مسلحين من خارج الدورة. لا يتدخل رجال الشرطة في أقسام الشرطة المحلية، أما الأمريكيون فلا يدخلون المنطقة إلا فيما ندر، على الرغم من أن رجل الأعمال قال إنه يذهب للنوم ليلاً مع أصوات إطلاق الرصاص والطائرات المروحية التي تحوم فوق المدينة وإسقاط القنابل، وكأنه يعيش على الخط الأمامي للمعركة، وقال: «الدورة خارج سيطرة الحكومة»، ولم يبقَ فيها أحد من الشيعة تقريباً.

قال مسؤول عراقي رفيع المستوى على اتصال بالاستخبارات السرية: إن حملة القتل في الدورة هي جزء من جهد إستراتيجي من المتمردين السنة «لإعادة تشكيل أرض المعركة»، لإخلاء المنطقة من الأعداء المحتملين واستخدامها منطقة إستراتيجية للهجمات في بغداد. كان في الدورة بنية تحتية أساسية -مصفاة النفط ومحطة توليد الكهرباء- وهي تقع على الطريق من المناطق التي تهيمن عليها العشائر السنية جنوب بغداد إلى قلب المدينة. وقال المسؤول: إن أعمال القتل هناك جزء من أسلوب، ينتقل من الهجمات على الوحدات العراقية والأمريكية التي كانت تعرض المتمردين لمخاطر كبيرة إلى قتل الأفراد من المسؤولين

والمواطنين العاديين، بهدف زعزعة ثقة الشعب بقدرة الحكومة على حمايتهم. وقال: إنه في شهر يناير/ كانون الثاني، كان هناك سبع مئة من هؤلاء القتلة ذوي الدم البارد، وهو الرقم الأعلى في مدة الحرب حتى ذلك الشهر. «لذا فقد يكون عام 2006 عام الاغتيالات والهجمات على البنية التحتية».

مهما كانت الأسباب الإستراتيجية لأعمال القتل، فقد خلقت هستيريا طائفية لم يعرفها سكان بغداد من قبل.

التقيت جزاراً اسمه محمد كريم جاسم، يملك متجراً في طريق مزدحم، كان المدخل مسدوداً بالخراف المذبوحة المعلقة. وكان أخوه جزاراً أيضاً، ولديه محل في الدورة. في صباح أحد أيام شهر يناير/ كانون الثاني، كان أخوه يقطع اللحم لزبونتين حين دخل رجل إلى المحل، واستأذن من المرأتين، وتقدم إلى الطاولة قائلاً: «صباح الخير». نظر الأخ إليه وقال: «صباح الخير»، وقُتل برصاصة في أنفه. أسرع ابنه إلى الغرفة، وهو يصرخ: «أبي، أبي!» فقُتل هو أيضاً. وجاء أخوه الثاني، وهو جزار أيضاً، جرياً من محل مجاور وبيده سكين؛ فأردي قتيلاً أيضاً.

حين جلست بعد عشرة أيام مع الأخ الذي نجا، وهو رجل شجاع ملتحٍ في الخمسينيات من عمره، كان يلهث من الغضب. «الأوغاد القذرون. ليس لهم إيمان ولا قادة دينيون، منذ عهد أبي بكر وعمر حتى الآن»، قال الأخ، عائداً إلى القرن السابع مباشرة: «السبب الوحيد لذلك هو أننا شيعة وأننا نحب الإمام علي». عبر عن مرارة كبيرة، لأن القادة السياسيين والدينيين السنة نادراً ما يدينون قتل الشيعة، وكان يائساً من حماية القوات الأمريكية أو قوات الأمن العراقية. تنهد الجزار وقال: «لو أعطى قادتنا الدينيون فتوى، لما بقي هناك سنة في العراق. فمن يبقى منهم سيُقتل، كان على الجميع أن يغادروا؛ لأن الجميع هنا كسير القلب. أتمنى لو أستطيع أن أمسكهم بيدي وأذبحهم. أنا أستطيع ذلك، فأنا جزار».

لكل مجموعة قصة عن وقوعها ضحية، في منافسة شرسة مع مجموعة أخرى. في أحد الأيام، زرت مقر الحزب الإسلامي العراقي في غرب بغداد، وهو أكبر الأحزاب السنية

في البلاد، وله جذور في الإخوان المسلمين. كان على جدران مكتب حقوق الإنسان في مقر الحزب صور لجثث تحمل علامات تعذيب، على يد قوات وزارة الداخلية، حسب قول مسؤول في الحزب. وبينما كنت في المكتب، وصل زوجان عجوزان في حالة ذعر. فقبل أسبوع، في الساعة السادسة صباحاً، اقتحم خمسة عشر رجلاً من كوماندوز الشرطة بيتهم وعلى وجوههم أقنعة سوداء، وأخذوا ابنهما من فراش الزوجية. ومنذ ذلك الوقت لم يستطع الوالدان الحصول على أي معلومات عنه. وصفت المرأة العجوز رجال الكوماندوز بأنهم من عناصر منظمة بدر، أكبر الميليشيات الشيعية في العراق. كان أحد قادتها، بيان جبر، وزيراً للداخلية في السنة الماضية واتُهم بالسماح للميليشيات الشيعية بالتسلل إلى المكاتب المهمة في الوزارة، وإحداث وحدات شريرة ضمن قوات الشرطة. وأصبح السنة الآن بشكل روتيني يدعون السياسيين الشيعيين مثل بيان جبر بالإيرانيين؛ حتى إن الأم أسمته باسم فارسي. وصاحت الأم: «عمري خمس وخمسون سنة ولم أرَ شيئاً كهذا. إنهم يأتون به من إيران، من الفرس، إيران، التي تحاول الآن الحصول على القنبلة الذرية لتدمير العالم».

قال مسؤول الحزب عمر هاشل الجبوري للزوجين: إنه سيتصل بوزارة الداخلية للاستعلام عن الموضوع، ولمنع قتل ابنهما في أثناء التحقيق والتعذيب. وقال: إن هناك مئة شخص يأتون إلى مكتبه كل يوم لتقديم شكاوى، وإن كثيراً منهم قد نام على السرير الذي في زاوية الغرفة. وقال: «المشكلة الرئيسة هي أن إخواننا الشيعة بارعون في البكاء على معاناتهم. أما نحن الآخرون فلسنا بهذه البراعة».

كان العراق يتفكك، ليس إلى ثلاث مناطق مستقلة، كما يحلم بعض السياسيين، وإنما حي بعد حي، إلى آلاف القطع. لم يكن هذا صحيحاً فقط في بغداد والمناطق المحيطة بها، أو في المدن المختلطة كالموصل وكركوك، وإنما في الجنوب أيضاً. فانتخابات يناير/ كانون الثاني 2005، التي صنعت للمواطنين العراقيين يوم انتصار واحد، أعطت القوة للمجموعات الشيعية التي كانت تحكم كمنظمات مافيا، وليس بوصفها أحزاباً وطنية. بعد عام، أصبحت البصرة مليئة بالميليشيات: أجزاء من منظمتي الصدر وبدر، مع عصابات غامضة ذات إدارة إيرانية، ولكل منها رجل دين خاص بها، حتى أصبحت تسمى فرق الموت، واستلمت

إدارة الشوارع. وقد روى لي مسؤول التقيته في أثناء الانتخابات في البصرة أن خمسين شخصاً -من الأطباء والمدرسين والمسؤولين وطلاب الجامعات- تم اغتيالهم في يوم واحد في أنحاء المدينة. كانت فرق الموت تتحرك في أزواج من السيارات التي تعرف باسم بطة، وقد كتب مسؤول: «لهذه السيارة قصة مروعة، وعلى أي شخص أن يتجنب هذا النوع من السيارات، التي لها نوافذ زجاجية سوداء، وبها أربعة رجال مسلحين، ودوماً هناك سيارة أخرى تتبعها، ويجلس فيها بعض الأشباح غير المرئيين»، وفي صباح أحد الأيام، بينما كان المسؤول يقود سيارته إلى العمل، وجد نفسه عالقاً بين سيارتين من نوع بطة، وحين خرج المسلحون بهدوء واقتربوا منه، ظن أن فرق الموت قد أتت لاغتياله، لكنه شاهد إعداماً للرجل في السيارة التي بجانب سيارته. وكتب: «هناك آلاف الناس مثلي. نحن في العراق قلوبنا من خشب، وعيوننا مليئة بالرمل، ونحن كالخراف تحت أمر الراعي، في انتظار سكين الجزار».

كان تفكك العراق قد بدأ منذ وقت طويل، وقد بدأ بشكل ما قبل عبور الأمريكيين للحدود الكويتية في آذار 2003. لكن في عام 2006 كان يحدث بسرعة تنذر بالخطر، وكانت له جميع الإشارات التي تدل على أنه لن يتوقف. وأصبح العراقيون الذين كانوا يقولون: إن العراق بحاجة إلى سنة أو اثنتين ليخرج من العنف، ولكنهم يتحدثون عن عقد من الزمن أو أكثر، مما يعني جيلاً من الفوضى بعد أجيال الاستبداد.

لم يتوقف العراق يوماً عن تقديم التناقضات. فقد أسهمت السياسات والتكتيكات العسكرية الأمريكية في زيادة قوة التمرد وانتشار العنف الطائفي الذي أعقبه. ومع ذلك، في الشهر نفسه الذي رأيت فيه كم تدهورت بغداد، رأيت أيضاً دليلاً على أن الجيش الأمريكي كان يتعلم أخيراً كيف يحارب التمرد بطريقة فاعلة. في مدينة تلعفر التي تقع في الشمال الغربي، التي سقطت مراراً في قبضة المتطرفين السنة بعد إخفاق الأمريكيين في السيطرة عليها، أمضت كتيبة مسلحة من سلاح الفرسان بقيادة كولونيل متألق اسمه هـ. ر. ماكماستر، معظم عام 2005 في المدينة، وهي تقوم بتطوير العلاقات مع السكان المحليين، وتدريب شركائها في الجيش العراقي، وتتدرب على الإستراتيجية التقليدية لمكافحة التمرد، وتفصل المدنيين عن التمرد، وتقدم الأمن وتنشئ المؤسسات الحكومية التي تستطيع أن

تكسب دعماً شعبياً. كان هذا كله يتطلب وجوداً كبيراً طويل الأمد للأمريكيين في المدينة واستعداداً للمخاطرة وتحمل الإصابات. كان ماكماستر والضباط الشباب في كتيبته قد تدربوا على هذا المنهج في كولورادو وتولوا مسؤوليته في تلعفر بمبادرة خاصة منهم، بصفته ثورة ضد الإخفاق الفكري لقادتهم المدنيين والعسكريين رفيعي المستوى. في تلعفر التي كانت كالفلوجة في الشمال، استطاعت القوات الأمريكية والعراقية أن تحقق سلاماً هشاً. وقد رأيت ما كان يمكن أن يحدث لو تم القيام بهذه الأمور منذ البداية.

كان الإنجاز قليلاً ومتأخراً. فبعد سنوات الأخطاء والإستراتيجية المفككة من البنتاغون والبيت الأبيض، ضعف نفوذ أمريكة في العراق بشكل كبير. كان عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين الذين لا يزالون هناك، الذين كانوا يُقتلون فرادى أو ثنائيات، يتمسكون بأماكنهم، ويحاولون صد الهجمات، في محاولة لتشكيل حكومة وطنية، حتى تستطيع أن تصبح حقيقة واقعة على الأرض، بينما يقومون بمكافحة أسوأ أشكال التمرد: خيال الحرب الطائفية الكاملة والحرب الإقليمية التي يمكن أن تستنفد الشرق الأوسط كله، وتترك العراق في قبضة الميليشيات والإرهابيين والجيران اللصوص. قد تكون أمريكة قادرة على تجنب أسوأ ما في العراق، لكن ليس هناك أمل في بلد مستقر ومحترم قبل سنوات من الآن. كانت هذه الفرصة تضيع حين ذهبت إلى هناك أول مرة في صيف عام 2003 المليء بالأمل والمتاعب؛ أما الآن فكانت قد ضاعت منذ وقت طويل.

أثار إخفاق السياسة الأمريكية في العراق أكبر الأسئلة وأصعبها عن الحرب. هل كان التمرد لا مفر منه؟ هل يمكن توقع بقاء مجتمع معطوب ومفكك كهذا جزءاً واحداً، إن لم نقل إيجاد طريقة للديمقراطية؟ فهل كان من الممكن لإدارة الرئيس جورج بوش أن تنجح في مشروع صعب كهذا، يتم إنجازه بمثل هذا التكبر والعمى، مع قليل من الأصدقاء وكثير من الاستخفاف بالمجتمع الدولي؟ وقد ثبت أن السبب المعلن للحرب -وهو أسلحة الدمار الشامل والارتباطات بالإرهاب الدولي غير صحيح- أو مبالغ فيه. هل كان من الممكن لأي سبب آخر -كإنقاذ بلد كانت أمريكة توقعه في المكائد منذ سنوات، أو إنهاء الاستبداد، أو بداية لإصلاح عربي- أن يسوغ ذلك؟

مـا زال من الممكن تحقيق أهـم آمال مهندسي الحرب في أثناء جيل أو جيلين، وأن يؤدي تغيـير النظـام في العراق إلى تقدم الديمقراطية وتراجع التطـرف في الشرق الأوسط. لكن صناع السياسة خاضعون للمساءلة ضمن معايير هيئاتهم الرقابية. أما في الوقت الحاضر، وفي المستقبل المنظور، فقد تضررت المصالح الغربية الأمريكية والليبرالية بشكل بالغ، بسبب حـرب العراق. كانـت الحرب كارثة لجيشنا الـذي عانى القتل والإصابـات المحزنة، وخسر الكثير من شرفه في «أبو غريب»، وفي موت عدد كبير جدًا من المدنيين العراقيين، ووصل إلى نقطة قد يكون فيها الانسحاب ضرورياً ببساطة بسبب نقص القوات. قام معظم الجنود بكل مـا طُلب إليهم، لكن كثـيراً من أفضلهم -بمن فيهم جون بريور- قـرروا أن يتركوا مؤسسة يحبونهـا. تميز الإخفاق في العـراق بقلة المساءلة في واشنطن التـي أرسلت أخيراً عدداً من الجـنرالات المتقاعدين الكتومين للقيـام بشيء لم يسبق له مثيل تقريباً في التاريخ العسكري الأمريكي: أن يتحدثوا علناً، ويشيروا بإصبع اللوم إلى مديرهم السابق، دونالد رامسفيلد.

يسهـل تقدير التكاليف المباشرة التـي تحملتها الخزينة الوطنية، التي تجاوزت الآن 300 مليـار دولار، أما انهيار التحالفات، وخسارة القوة والسمعة الأمريكية، واستنزاف الاهتمام والموارد من أزمات أخرى، ولا سيما النزاع ضد الخطرين المتلازمين في العالم، وهما الجهاد والانتشار النووي، فهي خسائر صعبة التقدير، لكنها لا تقل واقعية. أثبتت نتائج الحرب أنها كانت خطأً كبيراً، لا يحدث إلا مرة كل بضعة أجيال.

أنهـت حرب العراق عصر التدخـل الإنساني الذي ساعد في جعلهـا قابلة للتفكير فيها. كشفـت الحرب عمـا كان واضحاً مسبقاً للجنـود ذوي الخبرة وكان يجـب أن يكون واضحاً أيضـاً للمثاليين المدنيين، وهو أن الهدف الأخلاقي المصحوب بالقوة، دون المعرفة والحكمة، يمكـن أن يكـون أكثر خطـورة من غير المبـالاة. لا يمكن معرفـة نتائج أي حـرب، باستثناء المـوت الـذي لا مفر منـه، وقد كانت الأرض في العـراق لا تساعد في بناء شـيء جيد ومتين. إن الحـرب لإنهـاء الاستبداد هناك -وإن كان وحشياً كاستبـداد صدام حسين الذي تتحمل الولايـات المتحدة مسؤولية تاريخية عنه، أولاً بتسليحه ضد إيران، ثم بتركه في السلطة عام 1991، وأخـيراً بفرض العقوبات التـي دمرت حياة ملايين العراقيين- يجب عدم القيام بها كمـا كانت بشرعية قليلة في نظر العالم. ليس هناك شـيء لا مفر منه؛ فالبشر المنظمون في

أنشطة تدعي السياسة والحرب، يجعلون الأمور تحدث بالشكل الذي تحدث به، وربما كان من الممكن أن يتحول العراق على نحو مختلف لو تصرف البشر المعنيون بشكل مختلف. لكن الحرب أداة غير حادة، بحيث يجب عدم استخدامها، حين تكون فرص النجاح ضئيلة.

أثارت الحرب وجهة نظر مشككة جدًا: بأن العراقيين كانوا دوماً عاجزين عن العيش معاً، وعن تشكيل أمة، وإنشاء ديمقراطية؛ وأن لديهم الثقافة الخطأ. صحيح أنه ما إن رُفع الغطاء حتى ظهر أن العراق أكثر تديناً وأكثر قبلية وأكثر غموضاً وأكثر عنفاً مما تخيله معظم الغرباء. لم يكن لهذا علاقة بشيء موروث وثابت يدعى «الثقافة العراقية» بقدر ما كان له علاقة بتاريخ حكومة بالقوة، من الحدود العراقية التي رسمها الأوروبيون إلى الضرر الذي أوقعته خمس وثلاثون سنة من حكم البعثيين. فإذا سيطرت الفئات الأفضل تسليحاً والأقل تسامحاً على عراق ما بعد صدام، فلا يمكن لهذا أن يعكس الإرادة الحرة للشعب العراقي. كان الخطأ الأصلي للأمريكيين هو إيجاد الظروف المواتية للفوضى. من لحظة سقوط النظام السابق لم يسلم أحد من التخويف العنيف، وكانت المسألة مسألة وقت فقط حتى أصبح المتمردون والميليشيات أقوياء. لم يسمح للمواطنين العراقيين، مهما كان المجتمع الذي أرادوا أن يعيشوا فيه –الذي لم يكن كثير منهم يعرفونه بعد– بممارسة فن المواطنة. أظهرت الانتخابات الثلاثة عام 2005 أن العراقيين قادرون على الشجاعة والنضوج السياسيين، لكن الانتخابات أقرت أيضاً ما أصبح أمراً واقعاً في الشوارع مسبقاً؛ فالعنف الطائفي أدى إلى تصويت طائفي. تبع حكم المستبد حكم المسلحين. حين أخفق الأمريكيون في ضمان أمن العراق، أخفقوا أيضاً في إعطاء العراقيين الحرية الحقيقية لتقرير مستقبلهم بأنفسهم.

سواء كان ذلك للأفضل أم للأسوأ، فإن مصيرنا مرتبط بمصيرهم الآن. لا يمكن أن يكون هناك انسحاب على مراحل من العراق المستقبلي. يبدو أن الانسحاب الكبير للقوات الامريكية في عامي 2006 و2007 كان حتمياً. سواء حصل وفق جدول زمني قرره السياسيون الأمريكيون، عبر خطة تمت مناقشتها بين الحكومتين الأمريكية والعراقية، أو حسب نصيحة قادة الجيش تحت الضغط الكبير لإظهار النجاح على الأرض، فإن للانسحاب علاقة بالسياسة الأمريكية أكثر من علاقته بالحرب في العراق. إن النقاش في واشنطن مغطى

بالتحيـز والوهـم، لدرجة أنه لم يعد لـه معنى تقريباً. وكي يكون للعـراق أي فرصة حقيقية للاستقـرار سيكـون هناك حاجة لبقـاء أعداد كبيرة من القوات في العـراق، تشترك بشكل كبـير في الأمن وإعادة الإعمار، سنوات قادمـة. ربما ستقرر الحكومة الأمريكية أن الالتزام الأمريكـي واسـع النطاق قد حقق كل ما يستطيع في العـراق، وأن مصالحنا الوطنية تتطلب نقـل القوات إلى الكويت أو قطـر، حيث تحاول تأمين موارد النفط، ومنع الدول المجاورة من التجـاوز، والتصـرف بصفة قوة تدخـل فقط كملاذ أخير إذا حقـق التمرد مكاسب كبرى، وكانـت الحكومـة العراقية توشك علـى السقوط. وإذا جاء ذلك اليـوم، فلن يكون له علاقة بالنجـاح في العراق. ستعلن الإدارة الفوز، وتعلن المعارضة التبرئة، لكن العراقيين سيعرفون أنهـم تُركوا لتسوية أمورهم فيما بينهم. وعلى الرغم من أن الوجود الأمريكي في العراق قد أثـار الاضطراب في الشـرق الأوسط، فإن مغادرة الأمريكيين الآن لـن تؤدي إلا إلى تحسين وضع القوى الإقليميـة -إيران والسعودية وتركية- وتغريهم لملء الفراغ الذي خلفته. كما أن هنـاك احتمالاً كبـيراً أن يصبح غرب العراق خـارج السيطرة الحكومية سـواء العراقية أو الأجنبيـة، ويصبح قاعـدة لعمليات الجهاد الإقليمية. كما أن محاولـة إقامة حكومة تمثيلية وجمـع العـراق ضد قوى العنف والتقسيـم سيكون لها نتائج دائمـة للأمريكيين، أكبر كثيراً مـن نتائج فييتنام. ففكرة أننا نستطيع سحب قواتنا والاكتفاء بذلك، تاركين العراقيين لحل أمورهم، ضرب من الخيال.

أظهـر العراقيون صـبراً ومرونة في أثناء الكابوس الجديد الـذي وجدوا أنفسهم فيه بعد أن صحـوا من كابوس صدام، وهي صفـات اكتسبوها من سنوات المعاناة الطويلة، وهذا أحد المصـادر القليلـة للأمل التـي أستطيع أن أجدهـا في العراق اليوم. فالناس البسطاء الذين أعرفهم هناك ويتوقون لعيش حياة لائقة، دون تفجيرات انتحارية أوانقطاع للتيار الكهربائي أو شرطـة سرية، يجعلون مـن الصعب علي أن أكتب عما يجري علـى أنه كارثة لا علاج لها. استغرقـت وقتاً طويلاً؛ حتى أستطيع التفكـير في الأسئلة التاريخية الكبرى المتعلقة بالحرب؛ فهـي بحاجة للبعـد عن الأمل والمعاناة في العراق، وهذا مـا لم أستطع تحقيقه. فما إن سقط النظـام، وبـدأت بالسفر إلى هناك، حتـى سقطت جميع الحجج حول ميـزات الحرب. كان الأكثر أهمية هو الصراع الذي يتم تمثيله في أرجاء العراق، ولم يكن لدي شك في المكان الذي

يقع فيه تعاطفي: كنت أريد أن يكون لدى العراقيين فرصة لعيش حياة لائقة كانوا قد حُرموها طويلاً. كنت أريد ما أطلق الغزو الأمريكي العنان لنجاحه. كما كنت أريد أن أفهم سبب إخفاقه، لكن مشاعري جعلت الانفصال الذي يحتاجه التحليل الموضوعي أمراً مستحيلاً.

بسبب كل الرعب الذي يسود الحياة اليومية في بغداد، أردت دائماً أن أعود إلى هناك، حين كنت هناك لم أكن أرغب في المغادرة. كان هناك شيء مثير بشكل غريب حول المكان حتى بعد أن بدأت أسوأ أعمال العنف. كانت اللقاءات بالناس أقوى، وكانت العلاقات تتشكل بسرعة، والمحادثات تسير مباشرة نحو الموضوع، لم يخجل العراقيون الذين عرفتهم من التعبير عن المشاعر القوية، وكذلك الأمريكيون، بمن فيهم الجنود. وكان الناس الذين لم يمضِ على تعارفهم إلا وقت قصير مستعدين أحياناً للمخاطرة بحياتهم لأجل بعضهم. وكانت الأخبار في العراق مليئة بوحشية لا يمكن التحدث عنها، لكن تجربتي هناك تميزت بالكرم واللطف بقدر أكبر كثيراً، وكنت دوماً أجد صعوبة في أن أترك ورائي أصدقاء عليهم مواصلة الحياة هناك، وتصبح حياتهم في خطر يزيد كل يوم.

وصلت إلى شعور بأن رد الفعل تجاه أحداث السنوات القليلة الماضية لم يكن التسويغ أو اللوم، وإنما مجرد الحزن على آمال وتضحيات العراقيين والأمريكيين على حد سواء. ليست حرب العراق مناظرة يتم ربحها أو خسارتها؛ إنها مأساة.

في شارع هادئ شرقي بغداد، خلف حديقة ذات كراسٍ مرتبة في صفوف وسط العشب، كان هناك بناء صغير عادي من طابقين. كانت اللوحة التي على بابه الأمامي التي كتب عليها «مركز الجنة» لا تكاد ترى من الطريق، للمحافظة على السلامة. وقد تلقى د. باهر بطي، مدير العيادة، تحذيراً من أصوليين مجهولين بأن الجنة لا يمكن أن توجد على الأرض.

في الأعوام الثلاثة التي عرفته فيها، كان د. بطي يشكك بشكل دائم ومتزايد بدوافع الأمريكيين والسياسيين العراقيين والقادة الدينيين والدول المجاورة للعراق؛ ومع ذلك فقد تابع بإصرار كبير الفكرة الأولى التي خطرت بذهنه بعد سقوط النظام السابق: كان يريد أن يفتح «عيادة نفسية لإعادة التأهيل» تعيد بناء إنسانية أبناء بلده. كان د. بطي يؤمن بأن العراقيين بحاجة أن يتحدثوا ويفكروا ويتسامحوا بعد عقود من الديكتاتورية والحروب

والعقوبات والاحتلال. قدم عرضاً لإقامة العيادة إلى سلطة الاحتلال والوزارات العراقية المتعاقبة، لكن أحداً منهم لم يقدم له الدعم. وفي عام 2005، تبرع مالك صحيفة في بغداد بالمال، وفي يناير 2006، قبل زيارتي مباشرة، تم افتتاح مركز الجنة أخيراً.

في غرفة الانتظار، علقت رسومات تجريدية ذات ألوان زاهية رسمها المرضى. وفي أعلى الدرج الضيق، كانت هناك عدة غرف انتظار صغيرة، خطط د. بطي أن يقيم فيها محاضرات، وأمسيات شعرية ودورات تدريب على الحاسوب واجتماعات لمجموعات الصحة العقلية النسائية. كان المركز متواضعاً وقليل الأثاث، لكنه كان يعطي شعوراً بأنه واحة للسكينة وسط القبح والعنف الطاحن في بغداد. قال د. بطي: «إذا كسبنا العناية الإنسانية لمرضانا فسيكون انعكاس ذلك حركة إنسانية في المجتمع كله، هذا المكان ليس مجرد معهد علمي. إنه أيضاً مكان للأدب والفن. نحن نحاول تثقيف الناس في مجال الاتصالات».

كان د. بطي يعيش في الدورة، الحي المختلط في جنوب بغداد الذي يسود فيه العنف بشكل خاص. «لا توجد اشتباكات مباشرة في الشوارع، لكن حين يُقتل واحد أو اثنان من معارفك كل يوم، فهذه حرب أهلية». كان معظم أصدقائه وزملائه يغادرون العراق، مع غالبية الطبقة المتعلمة في البلاد.

حين جلسنا في مكتبه، نحتسي الشاي، قال لي: «دعني أخبرك عن صراعي». كان صراعه بسيطاً: بين البقاء أو الرحيل. في أيار 2005، تعرضت ابنته الصغيرة لإصابات بالغة حين أصيبت حافلة مدرستها بسيارة مفخخة. بعد ذلك أصرت زوجه على أن تنتقل العائلة إلى أبو ظبي. ومع ذلك كان د. بطي قد حقق أخيراً شيئاً ملموساً في العراق، وكان الرحيل الآن كالتخلي عن طفل. قال بطي: «أشعر كأنني شخص قُطع من جذوره».

كان قرار د. بطي يعتمد ما سيحدث في الأشهر القليلة القادمة، وعلى تشكيل حكومة جديدة. لم يكن لديه كثير من الأمل بالتحسن في أي وقت قريب، لكنه كان يبحث عن إشارة على الاستقرار. أضاف بطي: «وإلا فإنها ستتحول إلى حرب أهلية، وسنخسر كل شيء، ولن يكون هناك شيء يمكن فعله هنا. إما أن يحدث شيء هذه السنة أو لن يحدث أبداً، لا يعتقد أي من العراقيين بأن عليكم الرحيل غداً. صدقني. حتى القادة السنيين، إنهم يعلنون ذلك

في وسائل الإعلام، لكن ذلك للاستخدام الشعبي، إن جاز التعبير. إنهم يعرفون أننا لا نستطيع أن نجعل الجيش الأمريكي يغادر البلاد الآن؛ لأن جورج بوش قد أحدث الفوضى، وعليه أن ينظفها، اعذرني لقولي ذلك». استهجن وابتسم بطريقته المتألمة: «لقد ارتبطنا مع المحتلين بزواج كاثوليكي. ولا يمكن الحصول على الطلاق».

مشى معي إلى الحديقة التي أضاءتها الشمس. كانت هناك سيارة تمر أمامنا ببطء. وقد نسيت ساعةً أن أخاف، ولأننا كنا نودع بعضنا فقد كنت متردداً بالذهاب. في السابق كنا نتصافح دوماً، لكن هذه المرة قبلني د. بطي من وجنتي، حسب الطريقة العراقية. ربما شعر، كما شعرت، أننا قد لا نلتقي مجدداً إلا بعد وقت طويل.

أيار 2006

# تنويه بالمصادر

هذا الكتاب هو كتاب إخباري بشكل أساسي. وقد سمح لي عشرات الأمريكيين والعراقيين وغيرهم بأن أقابلهم وأتبعهم وأتعلم منهم. أعطاني بعض الأشخاص ساعات كثيرة أو حتى أياماً من وقتهم. إنهم أكثر من أن أذكر أسماءهم جميعاً هنا، وبعضهم قد لا يريد ذلك؛ لذا سيبقى الشكر الذي سأنشره شاملاً ودون ذكر أسماء.

بالإضافة للمقابلات، اعتمدت على تغطية الصحافة العالمية للحرب على العراق للحصول على المعلومات، وخاصة The New York Times, The Washington Post , Los Angeles Times, The Boston Globe, Newsweek, Time, The New Yorker, The Atlantic Monthly, The Knight-Ridder, The Associated Press, Reuters, The Telegraph, The Guardian و Observer, Le Monde, Corriere della Sera, The Daily Star of Beirut, the Stanhope Centre's Iraqi Media Developments Newsletter, وIraqi Press Monitor التابع لمعهد أخبار الحرب والسلام. كما ساعد تنيس المنشورات والمواقع الإلكترونية لمركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ومجلس العلاقات الخارجية، ومعهد الولايات المتحدة للسلام، ومؤسسة بروكينغز، والمعهد الملكي للشؤون الدولية، ومعهد الشرق الأوسط للبحث الإعلامي. كما أنني أقرأ بانتظام عدداً من المواقع العراقية الخاصة على الإنترنت، وخاصة www.healingiraq.blogspot. com. كما استفدت من المعلومات والروابط على موقع www.andrewsullivan.com. و www.juancole.com. وwww.warandpiece.com. و موقع «Iraq'd» على The New Republic.

وكذلك كانت الكتب والمقالات الآتية مفيدة أيضاً:

- Fouad Ajami, The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey. New York: Pantheon, 1998.

- Hanna Batatu, The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq. London, Saqi Books, 2004 (3rd edition)

- Gertrude Bell, The Letters of Gertrude Bell: Vols. I and II. London: Ernest

Benn, 1927.

- Paul Berman, Terror and Liberalism. New York: Norton, 2003.

- Richard A. Clarke, Against All Enemies: Inside America's War on terror. New York: Free Press, 2004.

- Ivo H. Daalder and James M. Lindsay, America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy. Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 2003.

- Larry Diamond, Squandered Victory: The American Occupation and the Bungled Effort to Bring Democracy to Iraq. New York: Times Books, 2005.

- David Dudley, "Paul's Choice," Cornell Alumni Magazine, July/August 2004.

- James Fallows, "Blind into Baghdad," The Atlantic Monthly, January/ February 2004.

- Franklin Foer and Spencer Ackerman, "The Radical," The New Republic, December I, 2003.

- David Fromkin, A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East. New York: Henry Holt, 1989.

- Thomas X. Hammes, The Sling and the Stone: On War in the 21st Century. Osceola, WI: Zenith Press, 2004.

- Seymour M. Hersh, Chain of Command: The Road from 911/ to Abu Ghraib. New York: HarperCollins, 2004.

- Robert Kagan, Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order. New York: Knopf, 2003.

- Robert Kagan and William Kristol (eds), Present Dangers: Crisis and Opportunity in American Foreign and Defense Policy. San Francisco: Encounter Books, 2000.

- Mark Lilla, "Leo Strauss: The European" and "The Closing of the Straussian Mind," The New York Review of Books, October 21 and November 4, 2004.

- Kanan Makiya, Cruelty and Silence: War, Tyranny, Uprising, and the Arab World. New York: W. W. Norton, 1993.

- Republic of Fear: The politics of Modern Iraq. Berkeley: University of California Press, 1991 (rev. ed).

- James Mann, Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet. New York: Viking Books, 2004.

- Jane Mayer, "The Manipulator," The New Yorker, June 7, 2004.

- Yitzhak Nakash, The Shi'is of Iraq. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

- David Rieff, "Blueprint for a Mess," The New York Times Magazine, November I, 2003.

- Micah L. Sifry and Christopher Cerf (eds), The Iraq War Reader: History, Documents, Opinions. New York: Touchstone, 2003.

- Sam Tanenhaus, "Bush's Brain Trust," Vanity Fair, July 2003.

- Charles Tripp, A History of Iraq. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2002 (2nd ed.).

- Lawrance Weschler, Calamities of Exile: Three Nonfiction Novellas. Chicago: University of Chicago Press, 1996.

- Bob Woodward, Plan of Attack. New York: Simon & Schuster, 2004.

- David Wurmser, Tyranny's Ally: America's Failure to Defeat Saddam Hussein. Washington, D.C.: American Enterprise Institute Press, 1999.

# شكر وتقدير

إنني بادئ ذي بدء ممتن لجميع العراقيين الذين عملوا معي في تلطيف الظروف في العراق. يمكن هنا أن أذكر عمر عبد القادر، وعلي فاضل، وعلي حسين، وقيس الجليلي، ودحيا اللامي، وعمر صالح، و«سروان» فقيد حافظوا على حياتي، وأتاحوا لي معرفة بلادهم، ولهم شكري العميق لذلك. كما أنني ممتن لكرم أصدقائي في مكتب بغداد للإذاعة الوطنية ومجلة The New York Times. وأشكر كذلك توم رودز وتمام زيدان في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية على كرمهما في البصرة. وقد كانت رانية قدري في عمان تقوم بإدخالي إلى العراق وإخراجي منه بأمان.

قام المحررون في مجلة The New York Times أولاً بلفت انتباهي لقصة العراق، ولذلك أشكر كاثرين بوتون، وميغان ليبرمان، وجيري مارزوراتي، وآدم موس. كما أنني أدين بالكثير في رحلاتي الأربع إلى العراق وفرصة الكتابة عن الموضوع بشكل مطول وعميق لمجلة The New Yorker، وخاصة رئيس التحرير ديفيد ريمنيك، ولدوروثي ويكيندين، ولرئيس التحرير في مجلتي دانييل زاليوسكي. وأشكر أيضاً فيرجينيا كانون، وبروس ديونز، وبام ماك كارثي، ولورين بوركارو، وقسم تدقيق الحقائق، خاصة نانا عصفور، وجيتا دانيشجو، وأليسون هوفمان، ورافي خاتشادوريان، وناندي رودريغو، وآندي يونغ.

لقد قامت كاثي أندرسون، وكيلة أعمالي، بتقديم المساعدة لي باستمرار. كما عمل دوغلاس غيليسون بضمير حي بوصفه مساعداً في الأبحاث. وفي فارار وشتراوس وغيروكس أشكر عمل واه مينغ شانغ، وكاري غولدشتاين، وديبرا هيلفاند، وسينثيا ميرمان، وجيف سيروي، وآني ويدكايند، وأخص بالشكر جوناثان غالاسي، الصديق العظيم ورئيس التحرير.

أشكر هؤلاء الأصدقاء على مشاركتهم لي هاجس العراق وإثرائهم لهذا الهاجس: ديب آموس، وجون لي آندرسون، ودان بيرغنر، وبول بيرمان، وروبين كريسويل، وديكستر فيلكينز، وبيل فينيغان، وآني غاريلز، ومارسيلا غافيريا، وجيف غولدبيرغ، وفيليب غورفيتش، وفيصل

# بوابة الحشَّاشين

أمريكة في العراق

جورج باكر

---

دليل مجموعة القراءة

إسترابادي، ومصطفى الكاظمي، وفريد كابلان، وكنعان مكية، وسكوت مالكومسون، وعمار الشهبنـدر. أشكر والدتـي وأختي على حبهما ودعمهما لي في حقب غيابي المتعبة للأعصاب ولاهتمامهمـا الدائم بعملي. وقد أعطـت لورا سيكور هذا الكتاب ومؤلفه أكبر قدر من حبها وذكائها؛ لذا فإنني أدين لها بالشكر الجزيل.

## حول هذا الدليل

لقد تم تصميم الأسئلة وموضوعات النقاش الآتية لدعم قراءتك لكتاب جورج باكر بوابة الحشَاشين: أمريكة في العراق. نأمل أن تثري تجربتكم للتاريخ والأخبار الرائدة التي تقدمها هذه الصورة المقلقة للحرب.

## مقدمة

يقدم كتاب بوابة الحشاشين تبصراً غير مسبوق لأكثر قرارات السياسة الخارجية الأمريكية إثارة للجدل منذ فيتنام، ويروي كيف شرعت إدارة بوش تغيِر تاريخ منطقة الشرق الأوسط، وتورطت في حرب عصابات في العراق. في أثناء أربع رحلات في مهمات لمجلة النيويوركر، لاحظ جورج باكر المراسل الحائز على الجوائز بشكل مباشر الصراعات المعقدة للجنود والمدنيين من خلفيات كثيرة. وقد بعث باكر الحياة في الناس والأفكار والتاريخ التي قادت أمريكة إلى بوابة الحشَاشين -نقطة الدخول الرئيسة إلى المنطقة الأمريكية في بغداد- وكشف الحقائق القاسية لبناء الأمة والتمرد في حرب لم تتبع أياً من النصوص التي تم تصورها سابقاً. وقد كانت النتيجة تحفة صحفية، تقدم إجابات على موضوع ندرت معالجته بوضوح، بينما تطرح أسئلة جديدة مهمة عن المستقبل.

## أسئلة للمناقشة

1. ما الحكمة التي تظهرها العبارة المقتبسة عن شاعر وديبلوماسي سوري؟
2. يصف تمهيد الكتاب الحشود التي تجمعت على بوابة الحشاشين، ويقدم تاريخ البوابة (التي بناها صدام حسين تقليداً للعصور القديمة). كيف تشكل البوابة استعارة للوضع الحالي في العراق، ودور أمريكة في العالم؟
3. يذكر جورج باكر تاريخ إنشاء بغداد، وكذلك السياسة الخارجية الأمريكية في القرن العشرين، ويذكر صوراً للمحافظين الجدد الأصليين. أي هذه الجوانب لم تكن مفاجئة فيما يتعلق بك؟ ما الذي يجب أن يكون القادة في العالم قد تعلموه من هذا التاريخ؟

4. ناقش الرجال الذين دافعوا عن غزو العراق في مرحلة مبكرة، مثل روبرت كاغان وبول وولفويتز. هل هناك قاسم مشترك (المثالية حول الديمقراطية، شد عضلة حربية) في الأسباب التي عرضوها؟ حسب رواية باكر، لماذا كان جورج و. بوش مصمماً على الإطاحة بنظام صدام؟

5. يبدأ الفصل الثالث بقرار كنعان مكية عدم المشاركة في مشروع مستقبل العراق الذي تقوم به وزارة الخارجية. هل تم تضليل آرائه حول الحرب؟ ماذا تقول قصته عن آراء المغتربين؟

6. ما الذي اكتشفته عن سلطة التحالف المؤقتة بقراءتك عن رجال إدارة مثل درو إردمان، الذي تستهل قصته الفصل الرابع؟ ما هو دافع درو وميغان أو. سوليفان وكثير من الرجال والنساء أمثالهم الذين كانوا يأملون إنشاء حكومة نموذجية في العراق؟

7. يصف الفصل السادس انتقال السلطة من جاي غارنر إلى بول بريمر الذي سرعان ما أصدر أمراً متصلباً باجتثاث حزب البعث. هل تعتقد أن التمرد المتزايد هو نتيجة لقلة خبرة بول بريمر، أو أن الوضع كان سيتدهور بالقدر نفسه تحت سلطة جاي غارنر؟

8. كيف تتم مقارنة إعادة إعمار العراق بإعادة إعمار اليابان وألمانية والبوسنة وغيرها من السيناريوهات التي أعقبت الحروب في التاريخ؟ إلى أي درجة يجب أن نعزو الفوضى الحالية في العراق إلى حقبة لورنس العرب والاستعمار البريطاني؟ ما رأيك في العراقيين الذين قالوا لجورج باكر: إنهم يعتقدون أن البريطانيين كانوا أفضل من الأمريكيين كمحتلين؟

9. يلاحظ باكر مشكلة الاتهامات دون دليل، مقترنة بالرغبة في الانتقام، التي انتشرت في كثير من الفصائل العراقية. ما المطلوب للتغلب على مثل هذه المواقف ذات الجذور الثقافية العميقة؟

10. هل تعد السلب والتخريب والفوضى العامة في العراق نتيجة لإرسال عدد قليل من القوات الأمريكية لنقل البلاد من المرحلة الثالثة إلى المرحلة الرابعة (المقاومة لعملية الاستقرار)؟

11. يقدم الفصل الثامن أسيل، المرأة العراقية المتحررة التي تسأل: «هل تظن أن أحلامي ستتحقق؟» كيف يمكن أن تجيب عن سؤالها؟

12. يقدم كتاب بوابة الحشاشين قدراً كبيراً من المعلومات حول موقف العراقيين تجاه الجنس. إلَامَ تعزو الهاجس باختبارات إثبات عذرية النساء؟ كيف تمثل هذه المواقف جوانب أخرى من الثقافة العراقية؟ هل ستقوض هذه المواقف أي أمل في السلام وحقوق الإنسان في المنطقة؟

13. ناقش تجربة الصحافيين، كما وصفها كتاب بوابة الحشاشين. ما الذي اكتشفته عن العملية التي جمع بها باكر الحقائق، وتنوع خلفيات مترجميه؟ كيف قام انتشار الصحافيين من جميع أنحاء العالم، والتقنيات التي أتاحت للجنود والمدنيين إرسال ملاحظاتهم الشخصية عبر البريد الإلكتروني إلى أصدقائهم في بلادهم، بتغيير وجه الحرب؟ كيف تمت مقارنة التغطية الصحفية لهذه الحرب التي أصبح فيها الصحافيون أهدافاً، بحرب الخليج وفيتنام؟

14. كيف تحكي قصة الجندي كيرت فروشيسر عن الانشقاق بين المؤيدين للحرب ومنتقديها؟ ما رأيك في الاختلافات الكبيرة بين طريقتي رد فعل والد كيرت ووالدته على موته؟

15. ما هي نتائج الغزو سواء على الأمريكيين أو العراقيين على المدى البعيد؟ ما الذي قد يقوله الأشخاص المختلفون المذكورون في الكتاب لو قابلهم باكر ثانية بعد عشرين عاماً؟

16. هل تعتقد أن القوات الأمريكية ستغادر العراق كلها في يوم من الأيام؟ وإن كنت ترى ذلك، متى وكيف؟